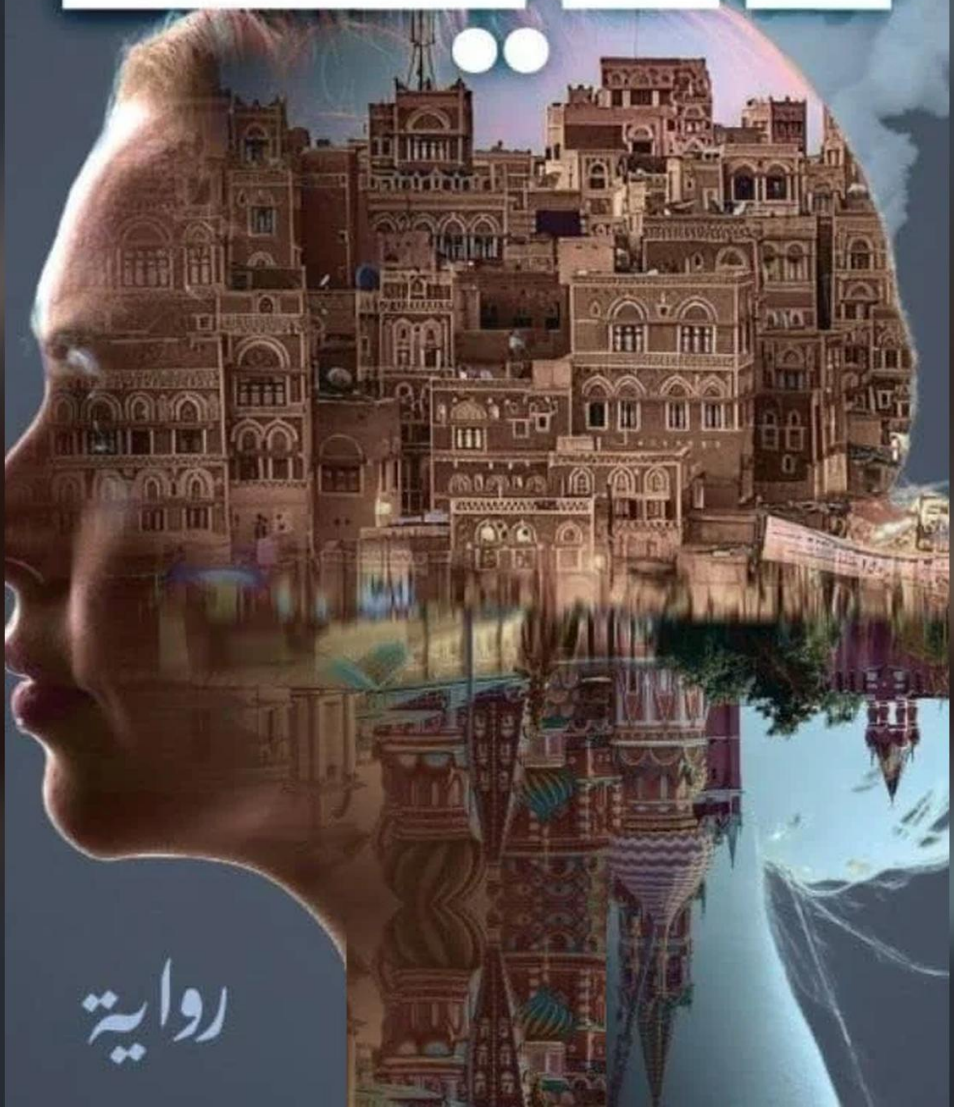
عبدالرحمن الآنسي

نادينكا



رواية

عبد الرحمن الآنسي

نادينـــكا

روايته

نادينكا

رواية · عبد الرحمن الآنسي

الطبعة الإلكترونية الأولى 2026

المؤلف:	عبد الرحمن الآنسي
النوع:	رواية
الطبعة الورقية الأولى:	2022، دار عناوين بوكس
رقم إيداع الطبعة الورقية:	2022/211
ردمك (ISBN) الإلكتروني:	**978-625-00-4959-4**

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

هذه النسخة الإلكترونية مخصّصة للاستخدام الشخصي لمشتريها، ولا يجوز نسخها أو إعادة نشرها أو توزيعها أو بيعها، كلياً أو جزئياً، بأي وسيلة، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

alanesi.com

هذا الكتاب

تداهمنا أوقات عندما نحاول فيها التحكّم بدفّة سـفينتنا نتوه فلا نرى سوى الضباب والماء، هكذا كانت نادينكا.

لـم تكن تعرف أن قرارها بالسـفر إلى اليمن سـيغيّر من حياتهـا كلّيـا. مـا توقعـت أن الأمور سـتجري بتلـك الطريقة المجنونة؛ تغيّر كل شيء عرفته حتى اسمها.

أمـا زوجها أدهم فحاول أن يكـون حكيما ويترك الحياة تجـري كمـا تشـتهي لكنها اشـتهت كل شـيء لديـه حتى زوجته.

عبد الرحمن الآنسي

"الحيـاة عبثيـة، إنهـا لا تبالـي بمـا تحملـه وتنجزه، فهي مسـتمرة بدون شك. يوجد طريقان للتعايش مع هذا العبث؛ إمّا أن تصبح عبثيًا، غير مهتم لأي شـيء كان أو سـيكون، أو أن تصبح شخصا عاديا تعيسـا يتبخّر في الهواء مثل دخان سيجارة.»

ألبير كامو

الفصل الأول

كانت تلك سـنتي السادسـة أو السـابعة في روسـيا ، وقد تكـون الثامنة ، من يدري. أذكر أن موسـكو وقتئذ كانت علـى مشـارف الخريف ، حيث كنّـا في أحد مسـاءات أيلول لعـام**19. كنـت مسـتلقيًا علـى كنبـة غرفـة الاسـتقبال ، أسـتريح من تعب ذلك اليوم ، وأسـتمع لإحـدى الإذاعات وهي تبثُّ أغنيتي المفضلة للفنان "أ. ج.":

ذات يوم أتيتُ إلى هنا

التقيت بمعشوقتي وتعانقنا

اليوم تركتني وحيدًا، أتساءل

أجبني أيها الصمت، هل هذا ذنبي أنا؟

كنـت مندمجًا مع صوتِ الأغنية لدرجـة أنني كنت أردد بعض الكلمات معها. رنَّ هاتفي ، خمّنت أنه صديقي "إيفان" ، فتجاهلتـه في البدايـة. كنت مرهقًا تلك الليلة وليس بي رغبة للذهـاب إلـى أي نادٍ ليلي للسـهر معـه. انقطع صـوت الهاتف فسـعدتُ في البدايـة ، لكنه عاد للرنين بإصـرار مرةً أخرى.

نهضت على مضض لأرد عليه لأكتشف أن المتصل لم يكن إيفان، بل كان أخي أكرم، يتصل من اليمن. وبعد أن انتهى من أسئلته الروتينية أخبرني أن أمي تلهج باسمي ليل نهار؛ تريد أن تراني قبل أن تموت. كان ينطق الثلاث الكلمات الأخيرة بصوت خافت وحزين، وكأنه لا يريد أن يحدث لها ذلك، أو على الأحرى يريدني أن أشعر بحزنه لحالها. حاولت أن أنهي الاتصال، حتى لا تفوتني الأغنية، فالراديو لا يبثها سوى مرة واحدة في اليوم، وليست محملة لديَّ في قرص مدمج أو شريط كاسيت. أنهيت الاتصال على أن أتدبّر أموري خلال يومين أو ثلاثة، أحجز خلالها تذكرة طيران.

عدت إلى الكنبة لأستريح، وأستمع إلى المقطع الذي يقول:

ذات ربيع قطفنا الورود

ظللنا نتبادل الكؤوس والقبلات طيلة اليوم

اليوم دخل الخريف وتساقطت أوراق الشجر

أجبني أيها الصمت، هل هذا ذنبي أنا؟

لقد كان صوت "أ.ج." رخيمًا عذبًا، وكنت أتمنى لو تتخلى الإذاعة عن بعض أخبار الحروب وجرائم القتل والاغتصاب، وبث هذه الأغنية الجميلة عوضًا عنها، سيكون أمرًا رائعا.

مضـى أسـبوع على اتصـال أخي الأخير، ولـم أعط الأمر أهمية حتى اتصل بي عدة مرّات، وأخبرني بحزنٍ مبالغ فيه أن حالة أمي ازدادت سوءًا، وأنها تتخرط في بكاءٍ هستيري في كل مرة تسألهم عني، ويواسونها بقرب مجيئي. قبل أن ينهي الاتصـال أكّـد على ضرورة سـفري في أقرب وقـت لأراها، وإلا سـأندم طيلة عمري إن لم أفعـل. كنت على يقين من أني لـن أنـدم بتلك الدرجـة التـي كان يصفها لي، لكـن تأنيب الضمير، وتجنبًا للقيل والقال جعلني أتخذ القرار بالسفر.

أخبـرت زوجتـي نادينـكا بأمر العـودة، وأعطيتهـا حرية الاختيار في أن ترافقني أو تظلّ في روسيا.

نادينـكا فتـاة روسـية، جميلـة، تعرّفـت عليها فـي أحد المحـلّات التي أشـتري منها ملابسـي الجامعية حيث كانت تعمـل فيه. جذبني جمالها فتعرّفت عليهـا، وتزوجتها، حصل كل ذلك بسرعة.

أحببت نادينكا رغم اختلاف ديانتنا، واتفقنا على الزواج، فأقمنـا حفلة متواضعـة حضرها بضع أصدقاء، واسـتأجرنا منـزلًا بسـيطًا، بعيـدًا عـن مركـز المدينة بسـعر مناسـب. كانت حالتي المادية وقتئذ ليسـت جيـدة، واضطررت لترك الجامعة التي التحقت بها سـعيًا وراء عمل يمكّننا من سـداد إيجار وفواتير المنزل لنعيش بسلام.

أمـي المسـكينة مريضة منذ سـنوات، وقـد اعتدتُ على شـكواها من آلام في مفاصلهـا وظهرها ومن الإرهاق الدائم في كل مرةٍ يربطني بها الهاتف.

"وكل هذا يهون أمام شوقي إليك يا ولدي"، هكذا قالت لي في آخر اتصال. منذ أسـابيع لم تسـتطع الحديث معي في الهاتـف؛ يبدو أن المرض اشـتدّ بها، وسـبب طلبي في تأجيل السـفر كل تلـك الفتـرة هـو عـدم قدرتـي على توفيـر أجرة التذاكـر، وقيمـة هدايا للأهـل والأصدقـاء المقربين؛ فمن العيب أن أغيب عنهم كل تلك السنوات وأعود صفر اليدين.

قررت أن أسـافر. طلبت من نادينـكا أن نبيع عِقد الذهب الـذي أهديتها إياه في حفلـة زفافنا. رفضت في البداية وقالت أنها لا تملك سـواه، ويجب أن تحتفظ به لأيامنا العصيبة التي ربمـا يفاجئنـا بها الزمن، لكني بطريقةٍ مـا أقنعتها بأن لديَّ أمـلاكًا كثيـرة فـي بلد الآبـاء والأجـداد، وسـأبيعها حين أصل، وأشـتري لها عقدًا أكبر من ذلك بعشـر مرات ثم نعود إلى روسيا سعيدين.

أعرف أني كذبت عليها، لكن ما عساي فعله.

بعـد أن بعـتُ عقد الذهـب وحسـبت النقود التـي في يدي وجدتهـا لـن تحقـق لـي كل متطلبات السـفر حتـى العودة، لكنها قد تساعدني في حجز تذاكر الذهاب، وشراء هدية

لأمـي إن رأيتها قبل أن تموت، وقد أنفقه على مراسـيم الدفن في حال أنها ـ كما قالوا ـ ستموت.

جهّزت حقيبة السـفر دون أي تفكيـر، لم تأخذ مني وقتًا طويـلًا، فلـم يكـن بهـا سـوى قميصيـن وبنطاليـن، وبعض العطـور. أتتني نادينكا لتخبرني أنها سـترافقني، فهي تريد أن تتعرف على عائلتي. خِلتُها غير مستعدة للخوض في مغامرةٍ صعبة كهذه، لكن يبدو أنها اتخذت قرارها ولن ترجع عنه.

حجـزتُ أقـرب طائـرة للعـودة ورؤيـة أمـي، لا أعـرف في الحقيقـة كم سـنة غبت عنهـا، لكن أمي حتمًـا تعرف. قبل أن أركـب الطائرة تذكّرت أني لم أخبر حارس المبنى بأمر سـفري، فاتصلـت بـه وأخبرتـه بالأمر حتى لا يحاول كسـر الباب من أجل أخذ مستحقات الحراسة.

علـى متـن الطائرة ظللـت أفكر: "هل سـأتحدث إلى أمي قبل أن تموت أم لا؟"، لا أُنكر أني تمنيت رؤيتها، ولتَمُت بعد ذلك إن شـاءت. وهل الموت يأتي حسـب الطلب! سـؤال ساذج برأيي.

نظـرت إلى نادينكا فشـعرت بالنـدم؛ لأني لـم أردّها عن قرارها. كنت أفضّل أن تبقى في روسـيا حيث الأرض والبيئة والنـاس الذين اعتادت عليهم، لكنها أصّرت على مرافقتي، فأنا أعرف جيدًا مشـقة السـفر إلى اليمن، فحين نصل إليها

سنستقل حافلة ستظلّ تمخر الوديان والجبال ثلاثة أيام حتى نصل إلى المحويت، مدينتي.

ظلّت نادينكا تتذمر من الوضع السيء الذي يعيشه أهل هذه البلاد، وكادت تتراجع عن قرارها في مرافقتي لولا أنها خافت من مخاطر العودة لوحدها. استشارتني في عودتها فأخبرتها أن القرار لها. قالت إني أصبحت شخصية باردة، وبرودي ذلك يجعلها تشتاط غضبًا، وكانت تحلف أنها لن تسألني مرةً أخرى عن أي أمر مهما كانت أهميته.. تظلّ صامتةً لساعة ثم تسألني عما تراه أو تفكر فيه، فأي غريب في هذه المدينة سيتملكه الفضول لمعرفة كل شيء عنها.

وصلنا قبيل المغرب بقليل. لعنّا تلك الطريق التي كدنا نهلك فيها، فروائح البنزين التي كانت تخنقنا في الحافلة، وعوادم السيارات المنتشر في كل مكان تجعلك تتقيأ حتى وإن كنت تملك معدةً حديدية.

اتصل بي أخي وأخبرني أنهم أسعفوا أمي إلى المستشفى الجمهوري في صنعاء؛ لتفاقم مرضها. المحويت تبعد عن المستشفى 111 كيلو متراً، مسافة نصف يوم على متن السيارة؛ لصعوبة الطريق وجشع السائقين في انتظار أكبر قدر من الركّاب. فكّرتُ بالذهاب إلى بيتنا لأستريح حتى اليوم التالي ثم أسافر بعد أن أرتاح من وعثاء سفري. لم أكن

مستعدًا للحاق بأمي في ذلك الوقت؛ فقد كنت أشعر بإرهاق وألـم في صدغـي، ونادينـكا برفقتي ولا بـد أن أوصلها إلى بيتنا وأظلّ معها بعض الوقت حتى تألف القرية.

نزلنا من الحافلة فجمعنا أمتعتنا وظللنا ننتظر مجيء سيارة، ولم تأتِ.. انتابني شعورٌ بأننا نزلنا في المكان الخطأ، وظللت أتلفّـت في الأرجاء علّي أعرف ملامح المكان. كان الشـارع الترابـي خاليًا عدا مـن بعض الكلاب التي تمـرق بين الفينة والأخرى. وصلتني رائحة قذرة، مصدرها قمامة متكدّسـة، نظـرت نحو مـكان القمامـة وكان هناك رجلٌ يفـرغ مثانته واقفـاً بالقرب منها، ووجهه نحو جـدار أصم. كانت الرائحة نفّـاذة؛ ما جعلني أشـعر بالغثيـان. تقيأت نادينـكا، وكدت أتقيأ لولا أن سـيارة "شاص" قادمةٌ نحونا، أوقفتها، واشترط السائق أنه لن يوصلنا إلى القرية نفسها كون طريقها الفرعي وعرةً جدا.

وصلنا القرية.. كانت العاشـرة مساءً، وكنا مرهقَين من حمـل أمتعتنا. السـماء صافية والسـكون جاثـم على القرية، فبـدت لي وكأنهـا تعيش مأتمـا. تحتّم علينا المشـي لنصف سـاعة تقريبا. اسـتقبلنا الجميع بحفاوة، سلّمتُ على كل من رأيتـه أمامي بطريقـة تلقائية دون أن أنتبه لأحد. وأظنهم أيضًا لم ينتبهوا لي كثيرًا؛ فقد أخذت نادينكا انتباههم.

دخلنا البيت ونسيت إخبار نادينكا أن تذهب إلى قسم النساء، وما كنت سأطلب منها ذلك حتى وإن كنتُ تذكرت؛ فهي لا تعرف من اللغة العربية إلا شذرات، لذلك لا بد أن تبقى بجانبي.

اعتراني شعور بأن بيتنا أصبح قديمًا أكثر مما كان عليه عندما تركته؛ فلون الجدران المطلية بالنورة أصبح باهتًا ومغبرًا، أما الأثاث فقد كان مهترئًا، حيث كان مكونًا من بطانيات ألوانها باهتة لكثرة الاستخدام، ووسائد ظهر مرقّعة باليد غير متناسقة لكثرة ما وضعت أكواع اليد عليها، المفرشة أصبحت كخريطة لكثرة القهوة التي انسكبت عليها.. وهناك بضع "مَدَاكي" مُغشاة بِخرَق ملونة ومحشوة ببقايا ملابس أفراد العائلة التي لم تعد قابلة للاستخدام، وبعضها محشو ببقايا قِشَر الذرة التي تتبقى من مواسم الحصاد.

رفعت عينيَّ إلى الأعلى، الأرَضَة بدأت تنخر خشب السقف، شعرت لوهلة بأني أعيش أتعس لحظات حياتي، ولا أعرف سبب ذلك الشعور، ألأن ضوء الشمعة كان باهتًا، أم لأن أمي مريضة، أم أن هذه هي الحقيقة؟

لم أهل القرية هنا في هذا الوقت من الليل؟ كدتُ أنسى أن من عادات أهل قريتي زيارة العائد من الغربة فور وصوله،

حتـى وإن كان فـي سـاعة متأخـرة مـن الليـل. تحدثـت إلـى بعض الأصدقـاء والجيران، وكانت أختي تعدّ وجبة العشـاء للضيـوف. أنهينـا العشـاء فجاءتنـا أختي بالقهـوة وهي تغطي وجهها باللثام، كما هي أعراف القرية، تناول القهوة أحدهم ووزعها على الحضور، وأنا من بينهم. بدأ الجميع يرشفون من فناجينهـم وينظـرون إليَّ كأنهـم يواسـونني، وكان آخرون يسـترقون النظـر إلى نادينـكا، وكأنهم يريـدون التهامها، بينمـا هـي ظلّت صامتـة تنظر في ملابسـها وتارةً نحـوي وأنا أتحدث، أو إلى السقف المهترئ خشبه، حتى تتحاشى التقاء عينيهـا بعيـون الحاضرين المرتبكـة. اقترب منـي أحدهم، وأمسك بيدي تعاطفًا، يقول:

ـ لا تشـغل بالك كثيرًا على والدتك يا صديقي، ستخرج بخير إن شاء الله.

هـززت رأسـي موافقًا لما قاله، رغـم أني لم أكن أفكرّ فـي أمـي، فقد كان النـوم هو كل تفكيري. كنت أشـعر أن ضـوء الشـمع الباهـت يزيد من ألم صدغي، وبدأت أشـعر بالنعـاس والملـل، وأظـن الحضـور أطالوا المكوث. سـألت أحدهم عن الوقت، ولم انتبه أني أحمل ساعةً في يدي. فهموا سؤالي واستأذنوني ثم خرجوا واحدًا تلو الآخر.

بمقدوري الآن الخلود للنوم. أخبرت نادينكا أني منذ الغد

لـن أسـتطيع البقاء بجانبهـا دائمًـا. عرفَتْ ما كنـت أقصده فلم ترفض، فقد أخبرتها من قبل أن الرحلة سـتكون شـاقة. أوصيتهـا بالتعـرف على بعـض نسـاء القرية حتى تتعلـم اللغة العربية جيداً.

الفصل الثاني

استيقظتُ صباح اليوم التالي على صوت متذمّر كان يحتجّ بأن الناس لم يعودوا يهتمون للأشياء التي يستعيرونها من الآخرين، سكت برهةً ثم عاود يقول إن هناك أناساً لا يستحقون أن نعيرهم ولو حتى حذاء مرقعا؛ لأنه أثمن منهم. كان لديَّ فضول لمعرفة الأمر، خمّنت من نبرة صوته أنه الأستاذ مبخوت؛ الذي درَّسني في الابتدائية، لكنه لا يسكن قريتنا. دخلت أختي غرفتي وأنا أرتدي ملابسي فاستحت وهمّت بالخروج لولا أنني سألتها عن صاحب الصوت المرتفع، فأخبرتني أنه «سمير الدَّبور»، عرفت أنها تقصد «أبو علي»؛ فقد سمّاه أهل القرية بسمير الدَّبور لكثرة اختلاقه المشكلات مع الآخرين. وضعت بعض العطر ثم خرجت باتجاه صوت سمير. هرع يسلم عليَّ ببشاشة كأنه لم يكن يشكو قبل قليل، ودون مقدمات تقلّصت ملامح وجهه، وبصوتٍ يحمل معاني اللوم شرع يحدثني:

ـ لقد تغير الزمن حقًا، قبل أيام طلب مني جارنا، م. ط.، فأسًا من أجل "الشاقي" الذي استأجره لفلاحة أرضه، وأعرته الفأس فأعادها إليَّ، مساء الأمس، مع ابنه وقد

كسر حدأتها ، هل يرضيك هذا؟

ـ ذلك لا يرضيني طبعًا.

ظلّ يضرب كفّيه ببعضها وقال:

ـ يظن أني سـأعيره شـيئًا في المرّات القادمة ، لن يحصل هذا أبداً.

كنـت أسـتمع إليـه باهتمـام بالـغ شـجعه علـى مواصلـة الحديث:

ـ ضع نفسك مكاني، أما كنت ستغضب مثلي؟ بل ربما ستطلبه للمحكمة ، أليس كذلك؟

وافقته الرأي، وأخبرته أن هناك أوقاتاً لا بد أن ننتزع فيها حقوقنـا بالقـوة. أعجبته الجملـة الأخيرة فأضافهـا لما كان يردده. تركني وقال أنه ذاهبٌ ليحذّره؛ أن يرد إليه فأسه كما أخذها ، ويسـتعيد حقّه بالقوة ، بل وسـيطلبه إلى المحكمة. هززت رأسي موافقًا لما قاله ، وظللت أشرب قهوتي حتى غاب عن ناظري.

كوب القهوة في يدي، لقد كان فارغًا إلا من بعض قطع القشـر الصغيـرة المتبقيـة في أسـفله ، ظللت أهـزّه بحركة تلقائيـة بيـدي متنقلًا ببصـري في المكان. بيـوتٌ حجرية ذو أسـقف ترابيـة ، بجانـب كل بيت أحـواش متفاوتـة الحجم؛ لاحتـواء حيوانـات البيت فيـه ، والتي أصبحت تلـك الأحواش

أماكن دسـمة للذبـاب والنامس وحتى القـوارض، كل ذلك بفضل الروث التي يتفاخر به أهل القرية على أنه سمادٌ طبيعي لا يمتلكـه إلا مـن هـو معـروفٌ ببراعته فـي الزراعـة وتربية الحيوانـات. قـد تجـد روث الحيوانـات على طرقـات القرية، وذلـك لا يـدل إلا علـى أن الحيوانات لم تتمالك نفسـها أكثر حتى تعود إلى الحوش فتسقطه كيفما اتفق معها.

لا أكـذب إن قلـت أني ذات يوم رأيت رجلًا خمسـينيا وهو عائـد من مدرجاته الزراعية يحمل فأسـه علـى جنبه الأيمن، وفجأة، أخرج من جيبه كيسًـا فارغًا ثم انحنى والتقط شـيئًا ووضعه في الكيس ثم استقام وواصل طريقه، عندما اقترب منـي أكثر اكتشـفت أنهـا كانت روث حيـوان طرية، رآها مغرية فأخذها.

شـدّني صـوت قطيـع أبقـار وأغنام أتـت من طـرف القرية متجهـةً نحـو الجبـال بحثًا عـن المرعـى، كان خلفها عجوز مسـنة، تتعكّـز عصا عجراء وتعتمر طاقيـة قشّ بثؤلول على أحد خديها، وبجانبها طفلٌ يرتدي أسـمالاً بالية ويحمل مطرّة مغشـاة بخرقة مبللة وقطرات ماء تسقط منها من حين لآخر، لقد كانا يقودا أمامهما أبقارًا وأغنامًا بعضها مقروعة بلجام يكبحهـا إذا مـا فكّـرت أن تجمح رغم أنها تمشـي أمامهما ذليلـة طيّعـة. كان يطربنـي خـوار الأبقار وثغـاء الأغنام وهي

تمشي بانتظام عدا بعض الخراف الصغيرة وهي تحاول اللحاق بالقطيع. قلت في نفسي: "ما أجمل الحيوانات مقارنة بغيرها ، فرغم ما تمتلكه من قوى بدنية وما تلاقيه من ضرب وتعنيف من راعيها إلّا إنها تظلّ مطواعة له".

دخلت إلى البيت وأنا أقلّد أصوات تلك الحيوانات بصوتٍ مسموع، وأفكر: ماذا لو أجّلت السفر إلى صنعاء حتى اليوم التالي؛ فجسمي ما زال مرهقًا.

اتصلت بأخي وسألته عن حالة أمي، فقال إن الطبيب طمأنهم بأن حالتها بدأت تستقر، وربما تعود إلى حالتها الطبيعية خلال يوم أو يومين. سألته ما لو تأخرت إلى اليوم التالي؟ فقال أن بإمكاني البقاء حتى صباح الغد ما دمت أشعر بالإرهاق، إلى ذلك الحين تكون أمي قد أصبحت في حالة جيدة؛ فيتسنى لها رؤيتي.

كنت بحاجة لزيارة بعض الأماكن التي عشت فيها جُلّ صباي، ولم أجد سوى الوادي الذي كنت أقضي في أرجائه معظم وقتي في فلاحة الأرض وتسوية التربة، ومتابعة حركة الفلاحات الحسناوات أيضا.

اتجهت نحو الوادي متخيلاً أنني سألاقي الأهالي منتشرين في الحقول يرددون الأهازيج ويقومون بأعمالهم. كنت متلهفًا لرؤية "سدّ القرية" والأطفال ملتفين حوله بفرح لمشاهدة

أحدهـم يسـبح، أو يلعبون بقرب النسـاء وهنّ يغسـلن ملابس العائلة بالقرب من السـدّ. خرجت متحمسًـا لرؤية شيء جميل ولم أجد شيئاً يسرّ الناظر.

مضـت أربـع سـاعات لـم أقـم فيهـا بشـيء، تذكّـرت صديقي"إيفـان"، ونحـن نقضـي أوقاتنـا معًا في أحـد نوادي مدينـة موسـكو، فاشـتقت للعـودة. تمنيـت أني لـم أعد إلى القرية، لكن الأمر لم يكن بيدي.

بحثـت عن أحدهـم لأتحدث إليه ولكن لا أحد، فالجميع يركضون في الأرض، لا يهمهم راحة جسد أو هدأة بال.

نسـيت إخبـارك أن الـزرّاع هنا متشـابهون؛ جميعهم يحمل الفـأس، يعملـون يوميـاً في حـرث الأرض وتقليـب التربة منذ صيـاح الديك إلى أن تبيت الدجـاج في أقنانها، لا يكلّون من قـرض تلـك المدرجـات، فلا يوجد لغـزٌ غامضٌ بالنسـبة لهم سوى أراضيهم، فالمدرجات الزراعية مآربهم التي يسعون من خلالها لتحقيق جُلّ أحلامهم، وبماذا يمكن للمزارع أن يحلم سـوى أن يـرى حقوله وافـرة الحصاد حتى يتمكن من سـداد مـا عليه للملّاك، ويدّخر القليـل منها للأيام العصيبة التي قد تطرأ.

قد يحلم المزارع خارج حقله بأشياء أخرى؛ كبيت متواضع يمكّنـه وعائلته من إيـواء أبدانهم المنهكـة بعد عودتهم من

المدرجات الزراعية، قد يحلم أن تنجب زوجته أبناء كثيرين لا يتمكّن من عدّهم؛ ليساندوه في فلاحة الأرض وتحمل أعباء الحياة، فالزوجة المثالية هنا هي التي تنجب الكثير من الأبناء وتعرف أمور الفلاحة أكثر من الرجل نفسه، كل هذا التعب وماذا يجنون سوى القليل من الحبوب والأعلاف التي تمكّنهم من العيش هم وحيواناتهم، ناهيك عن حصص مُلّاك الأرض.

أتذكر في واحدة من السنوات العجاف أننا اشترينا قدحين من الذرة حتى نستوفي حصة مالك الأرض، وجارنا حُبس لشهرين؛ وباعت عائلته البندقية الوحيدة التي يدخرونها لحماية أنفسهم من المتطفلين، وأراضيهم الزراعية من السباع واللصوص.

كانت المدرجات الزراعية ذاوية لقلة الأمطار، وكان الزرّاع يدعون الله ليلًا ونهارًا لينعم على مدرجاتهم بالمطر.

شعرت برغبة في التدخين، تجولت في المكان بملل لا يُطاق، فاتصلت بصديق طفولتي، كريم، لنذهب معًا إلى مركز المدينة؛ ربما اشتريت هدية خاصة لأمي.

لم أستطع تأمل ما حولي؛ فقد كنت متشبثًا بالدّعامات الخلفية للدراجة النارية، حتى لا أسقط.

في الطريق أخبرني كريم أن الأهالي قدّموا طلباً إلى

مكتـب المديريـة لإصـلاح الطريـق الوعـرة، لكـن لا أحد يهتـم بمـا يعانيه المواطـن. قال ذلـك بألم ثم بدأ يشـكو من قسـوة الحياة ومدى معاناة أهل القرية، وأنا أتأرجح على ظهر الدراجة النارية حتى وصلنا إلى الطريق الإسفلتي.

بـدأت أتابـع حركة المارة من على ظهـر الدراجة النارية، فأضحكنـي نبـاح كلب وهو يحـاول اللحاق بنـا، وأنا أدلي قدمـي لأسـتفزه أكثـر. توقف الكلـب عن الجـري وابتعدنا أكثر، كان كريم يحاول كسر الصمت فيذكرني بالأيام الخوالي التي كنا نقضيها معًا في تلك الأماكن:

ـ هل تتذكر عندما كنا هنا؟ يا لها من أيام جميلة!

كنت أهز رأسي أحيانًا، وأجيبه بـ نعم. بقيت شارد الذهن حتى وصلنا إلى مركز المدينة. أوقف كريم الدراجة النارية بجانب كافتيريا، فترجَّلت وأنا أشـعر بألم شـديد في أسفل ظهري. سألني كريم:

ـ ماذا تحب أن تشرب؟

كان الذباب يملأ الكافتيريا، فأجبته:

ـ سيجارة

اسـتغرب، فهو يعلـم أني لا أدخن، فأبـدى بعض الانفتاح وقال:

ـ لنشترِ سجائر.. لم لا؟

اشترينا علبة سجائر وبعض أغراض البيت ثم عدنا أدراجنا.

جاء نهار ذلك اليوم من لم يزرني بالأمس من أهل القرية.. عجائز يمشون على عكاكيز، أطفال يريدون رؤية هذا الرجل الذي عاش في روسيا ويتحدث لغةً لا يعرفونها، فتيات يحاولن استراق بعض النظرات، كأنهن يتساءلن بفضول زائد: "هل هو وسيم.. ما لون شعره وعينيه، وكم طول قامته؟"

كان العجائز يسلمون عليّ ويكررون نفس الأسئلة، وكنت أستحي من تكرار نفس الإجابات عن أسئلتهم: "كيف حالك يا ولدي؟ كيف هي صحتك؟ هل أنت بخير؟"

لا أعرف لم يسأل بعضهم أسئلة لا يهمهم إجاباتها، أهو مرض عقلي أم نفسي أم هي مقدمة لفتح باب الحديث في أشياء تافهة ومحاولة معرفة أجوبة لأسئلة معروفة إجاباتها مسبقًا، ألم يقولوا إن الوقت من ذهب؟ إذن فمحاولة حديث أحدهم معك في أمرٍ تافه يُعدُّ سرقة لوقتك واغتيالاً لصحتك النفسية.

كانت نادينكا تزعجني بامتلاكها هذه الصفة، ويمكن للمرء أن يتحمل هذه التصرفات من أشخاص قريبين، أما أن يتصرف الجميع هكذا فهي مشكلة عويصة، وأفضل طريقة للتخلص من هذه التصرفات هو عدم مقابلة الآخرين،

وخصوصًا كبار السن؛ الذين يثرثرون بقصصهم التي يرونها بطوليـة ومثيـرة رغبـة منهـم لإتمام نقـصٍ بداخلهـم يحاولون تغطيتـه بعـد أن أصبحوا كبـارًا. يظنونَ أنهـم كانوا مهمين بالنسبة للبقية عندما كانوا شبابًا وبعد أن كبروا لم يعد يهتم بهـم أحد، لذا هـم الآن يحاولون جلب اهتمام البقية بالحديث عن ماضيهم المليء بالنشاط والإثارة، وهذا يشعرني بالتقزز.

مللـت مـن أحاديـث العجائز وقصصهـم التي يظنـون أنني أسـتأنس بسـماعها. فكّـرت بالذهـاب إلـى مـكان هـادئ أختلي فيه بنفسـي وأدخن السـجائر بكل أريحية، فالمدخن في نظرهم من الطائشـين الذين لا فائـدة ترجى منهم؛ وأنا لا أريد أن أظهر أمامهم طائشاً من يومي الأول، ولم أجد مكانًا أنسب من الوادي.

هـذه المرة شـعرت أن الـوادي أجمـل ممـا كان عليه في المرة السـابقة، لا أريده الآن مكتظًا بالفلاحين النشطين أو الفلاحات الحسـناوات وهن يحملن الأعلاف على رؤوسـهن، أريد أن أشرب سيجارتي دون أن يزاحم خلوتي أحد.

وصلـت الـوادي وتنقلت بنظـري بين الجبال الشـاهقة التي تحتويـه مـن بعيـد وتلـك الهضبـات المتوزعـة فـي الجنبـات لأستكشـف بعض الأماكـن الجميلة، فقد كانت أشـجار الـذرح والطنب تجمِّل الوادي بأفرعها المتعانقة وتموجاتها مع

هبوب الريح. وأخرجت سيجارة.

جلت ببصري على الضفة الأخرى، لأجد فتاة تحمل على رأسها وعاءً ممتلأً بالماء، ظللت أراقب حركاتها إلى حد أني شعرت بتسارع أنفاسها. بدأت تقترب بخطواتٍ مرتبكة، استرقَت نظرة نحوي ففكّرت أن أطفئ السيجارة، ورأيت أن لا داعي لذلك. كانت كلما اقتربَت مني اكتشفت جمالها أكثر من خلف ذلك اللثام وتلك الملابس السوداء التي تغطي كامل جسمها.

اقترابها مني زاد من ارتباكها فتعثرت وسقط الدلو فانسكب الماء. هرعت لمساعدتها، كانت ملابسها مبللة، رمقتني بنظراتٍ حادة ثم قالت:

ـ أنت السبب في كل ما حصل، أما تستحي من نفسك تراقب الذاهب والآتي؟

لا أعرف كيف أنني السبب لأنني لم أكن تلك الحجرة التي تعثرت بها ولا السطل الذي أثقل مشيتها.. رفَعت السطل فوق رأسها وكان قد انكسر، أمسكت به بطريقة آلية وعيناها تتلفتان؛ هل رآها أحد غيري! كانت قطرات الماء تنسكب على عباءتها وأجزاء من صدرها بغزارة، شعرت بتسارع أنفاسها من خلف ذلك اللثام فرأفت لحالها، طلبت منها أن تنزل السطل المكسور من على رأسها، فلا فائدة من

الاستمرار في حمله. رفضت وشرعت تبكي بصوتٍ خافت. هممت بمساعدتها وحمل السطل معها إلى حيث تسكن، رفضت أيضًا وهمّت بمواصلة طريقها لولا أن سؤالي أوقفها:

ـ لم تخبريني عن اسمك.

أجابت وهي تسرع في السير:

ـ فلتسمّني بائسة هذا الوادي

ـ سأسميكِ حسناء الوادي.. هل يعجبك هذا الاسم؟

مشت دون أن تلتفت كي لا أرى وجهها الباكي ونظراتها الخجلة، وقلت دون أن أفكر بسفري إلى صنعاء:

ـ سأكون غدًا هنا أيضًا.

لم ترد، وبقيت تمشي بسرعة وارتباك نحو القرية حتى غابت.

أخرجت سيجارة أخرى. كان الموقف صعبًا بالنسبة للفتاة، لكني شعرت بسعادة لحديثي معها. فكرت قليلًا ثم عدت أدندن بأغنية تهامية علق لحنها في ذهني أكثر من كلماتها.

قمت من مكاني أنظر بعيدًا، كان وقت الغروب ولون الشمس قد تخضّب بالحمرة، نظرت نحو الجبال البعيدة التي ابتلَعَت نصف قرص الشمس خلفها أفكّر: "في ميثولوجيا

الإغريق لكل شيءٍ إله؛ فديميتر إله الزراعة والخصوبة، وأبولو إله الشمس، وزيوس إله الرعد والبرق، وأفروديت آلهة الحب والجمال، وآريس إله الحرب والانتقام، وهذه الجبال السامقة إله قريتي. ما أشبهك بالآلهة أيتها الجبال الشامخة، ذهبتُ وعدت دون أن تتغيري".

عدت إلى البيت وأنا أفكر في حسناء الوادي؛ أريد لقياها مرةً أخرى.

وصلت البيت حال أذان المغرب، لامتني أختي؛ لأن هناك ضيوفاً أتوا وكانوا بانتظاري لتهنئتي على وصولي بالسلامة ولم أحضر لاستقبالهم، وقالت إن بعضهم قال إني نسيت الأصول في التعامل. وقالت أيضًا إنه ما كان عليَّ أن أتصرف هكذا، فأخبرتها بأني ذهبت لأرى المدرجات الزراعية والأودية القريبة من القرية فقد اشتقت لرؤيتها. كدت أحلف لها لولا أنها قاطعتني مؤكدةً لي ضرورة تخصيص بعض الوقت للجلوس مع من أتى لزيارتي، فنحن من عائلة محترمة ولا بد أن أمثّل العائلة خير تمثيل، خصوصًا أن أخي وأمي ليسا موجودين. هززت رأسي موافقًا، لكنها أردفت:

ـ لو تعرف أمي بأنك لم تستقبل الضيوف لعنّفتك على ذلك، لذا لن أخبرها عندما تعود، وأتمنى ألّا يصلها الخبر من أهل القرية.

كل شـيء يهون عدا غضب أمي.. بقيت حائرًا بين أن أبدو غير لائق أمام من سيأتي لرؤيتي من الأصدقاء والأقارب وبين أن أبـدو كاذبًـا أمـام حسـناء الـوادي. دخلت غرفتـي لأرتاح قليلاً، وفـي الحقيقة لم أولِ أمر الزوار الكثير من الاهتمام؛ فأنا لست مستعدًا لتلقي أسئلتهم المملة.

استلقيت أفكّر في ما حدث بيني وبين تلك الحسناء. قلت في نفسـي إن الحسـناء سـتأتي في اليـوم التالي علـى أمل أن تلتقينـي، وربما سـتعتذر لما حصل لها اليـوم أمامي، لكنها لن تجدني.

تبعتني أختي إلى غرفتي، إنها تشبه أمي كثيرًا، حتى أنني أهابها كأمي. سألتني عن صحتي، ولا أعرف لم سألتني هذا السـؤال متأخـرًا. حدّثتني عـن أمي وعن أخي قليـلًا ثم طلبت مني الذهاب لصلاة المغرب في المسـجد؛ فأمي ستغضب إن علمت بأمر تساهلي في الصلاة أيضاً.

هي تعرف أنني لا أحب فعل شـيء قد يغضب أمي. توضأت علـى عجالـة واتجهت نحو المسـجد. لحقت الركـوع الأخير مـع الجماعـة وأكملت صلاتـي وأنا أفكر فـي تلك الملاك الجميلة: "هل سأتمكن من مقابلتها غدًا؟".

اختلطـت عليَّ الأمـور فلم أعرف هل كانـت تلك ركعتي الثانية أم الثالثة، هل أنا في التشهد الأوسط أم الأخير؟ وكي

لا أصلي ركعة أخرى جزمت بأني صليت ثلاثًا وسلّمت.

كان هناك جمهرة من الناس بطرف الساحة وصخب نقاشاتهم يصل إليّ، اقتربت منهم حتى صاح سمير الدبور مُرحبًا بي:

ـ يا أهلًا بالروسي.. تفضل اجلس معنا وأخبرنا عن روسيا وعن أحوالها.

جلست بجانبه وبدأت أسئلة الحاضرين تنهال عليّ، مرة يسألون عن نمط الحياة وأسعار الكيروسين وبعض المواد الغذائية، وأخرى يسألون عن المناظر الجميلة هناك.. وبطريقة مازحة يسأل أحدهم عن النساء، فيبدأ بعضهم يصفهن بأسماء فواكه كالتفاح أو بأسماء حيوانات كالغزالة والظبية.

مضت دقائق لم يسألني فيها أحد فحمدت الله على ذلك. عاودتني فكرة الركعة التي ربما لن يقبلها الله متسائلًا: "ما هو عقاب من نسي ركعة ولم يصلّها؟"، كنت أريد أن أسأل إمام المسجد، لكننا سندخل في نقاش سيدوم لأيام، وتنتقل عدوى ذلك السؤال إلى البيوت أيضًا والقرى المجاورة فيبقى محل نقاش الكثير، وقد يضطر بعضهم للاتصال بمفتي الدولة لمعرفة الإجابة الفصل؛ فتنازلت عن قراري.

نظرت نحو الجهة الأخرى من ساحة المسجد، فرأيت

مجموعة من الأطفال وهم يلعبون فتصل أصواتهم إلينا ، فجأة سـمعنا صوت طفل يبكي. لم يهتـم أحد للصوت في البداية ، وما إن وصلتنا جلبة أصواتهم حتى صاح أحد الجالسـين: "من هذا الباكي؟" أجاب أحد الأطفال وكأنه يقوم بواجب:

ـ لقد صفع علي أسامة في عينه.

قام أبو أسـامة بهمة ليرى ابنه يبكي، فأزعجه ذلك. صاح بأبو علي قائلًا:

ـ ياسمير الدبور، ألا تأتي لتؤدب ابنك؟

قـام أبـو علي بعد أن كان جالسًـا ، وبخطى متقاربة اتجه نحو الأطفال المنهمكين في الحديث عن كيف بدأ الشجار بينهما وأبو أسامة. بدأت النقاشات بين الطفلين؛ كلٌ يريد أن يظهـر أمام أبيه بريئاً ومظلوماً؛ والأبوان كلٌ منهما ينظر نحو طفلـه بانتظار اعتراف الطرف الآخر بالذنب، بقيا يسـتمعان للطرفين، وفجأة، وجّه أسامة لطمةً على أذن الآخر، فأمسك علـي إذنـه بكلتا يديـه وهو يصرخ مـن الألم ويصيـح "أذني.. أذني". تدخل أبو علي وأمسـك بأسـامة من تلابيبه وهو يقول: "مـن تظن نفسـك أيها الحقيـر الصغير" لم يحتمل أبو أسـامة أن يرى ابنه يُهان أمامه بتلك الطريقة، فقام وأمسـك بتلابيب الآخر وهو يقول: "قابلني أنا يا قليل الحياء بدل أن تقابل الطفل المسكين"، بدآ يتشـاجران، وارتفعت الأصوات وتشابكت

الأيـادي، وقـام الجالسـون يفصلون بيـن المتعاركين بعد أن كانـوا يفكرون فـي جمال الفتيات الروسـيات اللواتي كنا نتحدث عنهن.

كان المؤذن يستعد لأذان العشاء ولم يرُق لي المكوث في المسجد أكثر، فغادرته وما زلت أسمع أصوات المتعاركين؛ كلاهما يتوعد الآخر ويوجه له كلمات الإهانة والتهديد. وأنا أعبر الطريق نحو البيت رأيت نساء على سطوح المنازل، يبدو أنهن خرجن بعد سـماعهن أصوات شـجار أزواجهن. إحداهن تصيـح بوقاحة: "عندما يترك الأب ابنـه دون تربية تحدث مثل هـذه الشـجارات". لم أخطُ سـوى بضع خطوات حتى سـمعت صـوت أبـو علي وهو يقول: "لا عليكِ يا مرة، من لم يربِّ أولاده فنحن سنربيهم بطريقتنا الخاصة".

وصلـت البيت أخيرًا، سـألتني أختي لماذا لـم أنتظر حتى أصلي العشـاء مع الجماعة، فأخبرتها أن الجماعة تشاجرت، وسـيصلون وكلٌ يفكـر كيف يكيد للآخـر، وأنا لا أحب المكائد.

الفصل الثالث

في اليوم التالي اسـتيقظت مبكرًا ، فتحت نافذة الغرفة ، كان الجـو بديعًـا ، والهـواء النقـي جعلنـي أشـعر بنشـاط عجيب. نسـيت أنـي بالأمس وعدت حسـناء الـوادي أن نلتقي اليوم، ونسـيت أيضًا أن أمي مريضـة تنتظرني، يا لكل هذه المُلابسات! ظللت أفكر في مخرج. وصلني اتصالٌ من أخي، طمأننـي أولًا عـن حالة أمي، وطلب مني أن أتأخر في السـفر إلـى قبـل الظهـر كي أصطحـب الحـاج حمود ، فهو سـيقوم ببعـض أعمالـه المهمـة وبعدهـا سـيرافقني. أردت أن أسـأله مـن يكون الحاج حمود ، لكن ليـس مهماً ، وخمّنت أنه أحد أصدقاء والدي، وربما سيأتي معي لزيارة أمي؛ وفاءً لوالدي.

كانـت لـديَّ رغبـة جامحـة لزيـارة الـوادي لعلّـي ألتقـي بالحسـناء فأخبرها بأمر سـفري حتـى لا تنتظرني. عدت إلى غرفتي لتبديل ملابسي وعطرتها ثم خرجت. صاحت أختي من المطبخ طالبةً مني ألا أتأخر فوجبة الإفطار ستكون جاهزة.

أختـي فتاة طيبة ، حالهـا يُرثى لها وهي تتحمل جميع أعباء البيت وحدها ، إلى جانـب فلاحة الأرض والاهتمام بحيوانات البيـت خصوصًا في غياب أمي وأخي. كانت تحلم أن تكمل

دراستها الابتدائية لكنها أُجبرت على ترك المدرسة في الصف الخامس الابتدائي؛ بحجة أن الفتاة تدرس لتتعلم أمور دينها لا أكثر، وحينما تعرف كيفية الصلاة وتحفظ الأدعية يجب عليها أن تترك المدرسة. كان حلمها يسيرًا لكن لا مجال لأحلام كهذه في قريتي.

أسرعت كي لا أتأخر، أجول بعيني في الأرجاء، دخان الحطب يتصاعد من بيوت القرية ينذر بيوم جديد يجب على ساكنيه قضاؤه في فلاحة هذه الأرض ألتي لا يجنون منها سوى القليل من الذرة وبعض ما يكفي حيواناتهم من أعلاف، أما بقية المحاصيل فهي تورّد إلى المُلّاك الذين يحددون سنويًا كم على المزارع إعطاؤهم دون أية مناقشات.

من يملك أرضًا فهو يملك حريته، وما أقل الأحرار في هذه البلاد، فالغالبية يعيشون تحت رحمة المالك؛ الذي يكون غالباً من عائلة المشايخ، الذين اكتسبوا كل تلك الأملاك بالنصب والاحتيال، وما أسهل أن يحتال شيخ على مواطنٍ مسكين ليأخذ أرضه ثم يؤجّرها منه مقابل نسبة سنوية من المحاصيل.

بخطوات متقاربة كنت أحاول الوصول إلى الوادي، رآني أحدهم، وهو يشرب قهوته الصباحية في علبة فول حديدية ويرتدي حذاءً مطاطيًا. دعاني لتناول الإفطار معه، حاولت

تذكّـر اسـمه فخانتنـي ذاكرتـي كعادتها. شـكرته على كرمه وواصلت طريقي.

وصلـت إلى الوادي، وبقيـت أتابع العصافير بشقشـقاتهن الجميلـة وتنقلاتهـا بيـن الأشـجار، هديـل الحمـام يشـعرك بالحياة، صوت حفيف الأشجار يجعل من الوادي مسرحًا رائعًا لتغيير النفسـية السـيئة. نصف سـاعة أرقب مجيء الحسناء، وعدت أدراجي خائبًا.

اقتربت من بيتنا فرآني سـمير الدبور، وشـرع يحدثني عن أمر فأسـه. قال إن الفأس في الحقيقة ليسـت مربط الفرس، ولكـن اسـتهتار الجار م. ط. بحقه وعـدم مبالاته هو ما جعله يصـرّ على اسـترداد حقـه، فالآن لـم يعد الأمر مسـألة فأس فحسـب، بل مسـألة اعتبار. صمتَ قليلًا ثم أقسم أنه سيطلبه إلى المحكمة. كان يردد بين جملة وأخرى "أسألك بالله هل ترانـي على خطأ؟" أخبرته أنه على حق. استشـارني ماذا عليه أن يفعل؟ رددت قائلًا:

ـ لـو كنـت فـي مكانـك لاسـتعرت منـه فأسًـا جديدة ولكسـرت حدأتهـا، ثم إذا جاء يسـتردها سـيعلم أن الحدأة بالحدأة، بهذا تكون قد اسـتعدت اعتبارك ويكون درسًا له في المرات القادمة.

غمغم بكلامٍ غير مفهوم وكأنه وافقني الرأي، وتمنى لي

قضاء يوم جميل وغادر.

وصلتُ البيت لأتناول إفطاري مع أختي، التي لم تأكل كما يجب؛ فقد كانت تقوم من المائدة ما بين فترة وأخرى لتتفقد أشياء في المطبخ ثم تعود. فرغنا من إفطارنا ثم قامت بتجهيز حقيبة صغيرة وضعت فيها بعض الأكل لأخي وأمي. طلبت مني أن أسلّم عليهم كثيرًا، وأن أتصل بأي أحد في القرية ليطمئنها عن حالة أمي، كون الهاتف محرمًا على النساء في القرية. ذهبَت لتكمل أعمالها البيتية، وظللت أنتظر في الغرفة حتى سمعت صوتًا يناديني.

خرجت لأرى رجلًا قصيرًا أشيب اللحية يتقدم نحو بيتنا حاملًا كيسين كبيرين في يده، يبدو أنه الحاج حمود. بعد أن سلّمت عليه حزمت أشيائي وودعت أختي، وانطلقنا نحو محطة الباصات إلى صنعاء.

ركبنا أقرب سيارة متجهة نحو صنعاء، كان في الكرسي الخلفي رجل في متوسط العمر، إلى جانبه شابة يبدو أنها أخته أو زوجته. كانت الفتاة تجلس إلى جانب النافذة من الجهة اليسرى، وهو يجلس بجانبها من الطرف الآخر حتى يتسنى لبقية الركاب الجلوس إلى جانبه دون أن يلمسوا طرف ثوب الفتاة. كان جسمها كله مغطى بثيابٍ سوداء، حتى وجهها مغطى بخمارٍ أسود. "كيف يتسنى للنساء

التنفـس من خلف ذلـك البرقع، فأنا أشـعر بضيق إذا وضعت كمامة بسيطة"؟. كنت أتساءل: "لماذا لم يركبا في المقعد الأمامي؟". بعد ركوبنا أصبح لدى السـائق أربعة مسـافرين، ـ وكما وعدنا ـ حين يحصل على المسافر الخامس سينطلق مباشـرةً. أتى المسـافر الخامس وأتى السـادس، والسائق ما زال ينتظر المزيد. صاح رجلٌ من الكرسي الخلفي أن السيارة أصبحـت ممتلئة بـل ومزدحمة، فماذا ينتظر بعد؟ رد السـائق بلهجة قاسية:

ـ دعونا نطلب رزقنا، ألا تعرفون كم سعر اللتر البترول، وكـم نعطـي لمندوبـي الفرزات، وكـم تكلفنا قطـع غيار السيارة إذا تعطلت؟ دعونا نطعم أطفالنا.

طلـب السـائق منـي أنـا والحـاج حمود وضـع أشـيائنا في صندوق السـيارة الخلفي؛ حتى نتقارب فيتسـنى لمسافر آخر الركـوب فـي الغمارة الأولى. أردت أن أخبـره أنها لن تكفي لكـن مزاجـه كان غير جيـد، فاضطررنا لقبـول صبي إلى جانبنا. أصبحنا ثلاثة في الغمارة الأولى، وخمسـة في الثانية. كان نصـف مؤخرتي على المقعد والنصـف الآخر معلقاً في الهـواء مراعـاةً للطفل الذي كان بجانبـي. ظللنا قرابة خمس سـاعات في الطريق الجبلية، وبين فترة وأخرى يقف السـائق فور رؤيته لمسـافر يلوح بيـده حتى وإن كان ذاهبًا إلى القرية

التالية ولن يعطيه سوى بضع ريالات.

وصلنا صنعاء. تمنيت لو أني لم آت، فقد كاد ظهري ينكسر من الجلسة الطويلة التي ظللت عليها، أما ساقاي فكنت أشعر أن الشلل قد أصابهما.

ـ نزلنا من السيارة وكدت أنسى الهدية التي أحضرتها معي لولا أن الحاج حمود نبهني إلى ذلك. اقتربت من صندوق السيارة فإذا به يقول بجزع:

ـ قد أخذوها أولاد الذين.

ألقيت نظرة على الصندوق فلم أجد حقيبتي أيضا، لم أهتم كثيراً بينما الحاج حمود ظلّ يلعن السارق طيلة الطريق. كان يقول إن زوجته استيقظت فجراً وذهبت إلى المزرعة لقطف بعض السنابل والفاصوليا الخضراء التي طبختها، ناهيك عن الهدية الثمينة التي اشتراها من السوق لأجل أمي. سكت قليلًا ثم قال:

لا يهمني الأموال التي أنفقتها على الهدية والعناء الذي تحملناه لتجهيزها، ما يزعجني الآن أننا في موقف محرج أمام والدتك وأخيك. كيف نزورهم من القرية ولا نحضر معنا شيئًا؟

كان يردد تلك الجمل ثم يتبعها بلعنات على السائق والسارق. قال إنه لو لم يطلب السائق منا أن نضعها في

الصنـدوق الخلفـي لمـا سـرقها أحـد. نعتهم ببعـض الصفات السـيئة ثم رجع نحوي يسـألني عما بداخـل هديتي، فأخبرته أنـي لا أعـرف بالتحديـد، ولكنـي لا أظن أن بداخلها شـيئًا يستحق كل هذا العناء.

ضجيج السيارات مختلط بالأصوات الصاخبة، نساء ذوات ملابـس سـوداء لا يُـرى منهـن سـوى أعينهـن، وبعضهن حتى الأعين لا يُرين، أخريات يلبسن ملابس ضاغطة ويحاولن لفت انتباه المارة. مطاعم شـعبية يرتادها المسـافرون، شـحاذون يشقون الزحام بغية استعطاف أحدهم ليهبهم بعض النقود.

أوقفنـي الحـاج حمـود ثـم قـال إن المستشـفى بعيـد مـن المـكان الـذي نزلنا فيـه، ويجب علينا اكتراء سـيارة حتى نصـل. فـور وصولنا اتصـل أخي وأكّد أن حالة أمي تحسـنت كثيرًا وأنها تحدثت إليه وسـألته عنـي، وعندما عرفت أنني فـي الطريـق إليها ذرفت دموعها فرحاً، واسـتبدت بي الرغبة للحديث إليها.

كان لمبنـى المستشـفى أكثـر من بوابة، لـم نعرف أيها الرئيسية. لمحنا هناك شاباً يدخن، سألناه، فأشار بيده تجاه المدخل وظلّ يلتهم سيجارته، أسرعنا المشي حتى وصلنا إلى قسـم العمليـات والعناية المركزة، فاسـتوقفنا رجل بدين ذو شعر أجعد يجلس على كرسي بلاستيكي، وسألنا إن كنا

بحاجة إلى مساعدة، فأخبرناه أن لدينا مريضاً في العناية المركزة وأتينا لزيارته. بلهجة صارمة قال إن موعد الزيارات لم يحن بعد، ويتحتم علينا الانتظار أربع ساعات. حاولنا استعطافه ورشوته ببعض النقود لكنه تحجَّج بأن المستشفى سيفصله إذا فعل ذلك.

نظر الحاج حمود نحوي محاولًا تمالك أعصابه ثم قال:

ـ بما أن أكرم قال إنها في حالة جيدة فلم لا نذهب لنأكل شيئًا نسد به رمقنا، وحينها يكون موعد الزيارات قد حان.

ذهبنا نحو مطعم كان قريبًا من المستشفى. لقد كان مزدحمًا، والضوضاء لا تكاد تهدأ بداخله لدقيقة. تركت طلب الغداء للحاج حمود؛ لأني كنت أكره التعامل مع النُّدُل، فتصنّعهم الحديث في محاولات لجعلك تطلب أكثر يثير اشمئزازي. أتانا الغداء، كان صحنًا من الرز إلى جانب نصف دجاجة مشوية ومسحوق طماطم.

لم يمض على بدئنا في الغداء سوى دقائق حتى اتصل أخي. سأل عن مكاننا فأخبرته، قال بأسف:

ـ ليتكم وصلتم أسرع.

لم أفهم ما قاله جيدًا، وظننته قال إننا وصلنا أسرع، فسألته:

ـ ماذا قلت، لم أسمعك جيدًا؟

بصوتٍ حزين:

ـ لقد توفيت أمي قبل قليل يا أخي، فليعظّم الله أجورنا.

كنت أسمع بكاءه من سماعة الهاتف. توقّف الحاج حمود عن مضغ اللقمة التي في فمه، وسألني بصوتٍ مكبود:

ـ هل ما سمعته حقيقة؟

هززت رأسي، بالموافقة. ساحت منه دمعة فمسحها وهو يردد:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

نظر نحوي بعينين حزينتين وكأنه يواسيني، ثم قال:

ـ عصم الله قلوبكم يا ولدي.

لم أقل شيئًا، فعاود يقول:

ـ لقد كانت تحبك كثيرًا يا أدهم، حتى أنها كانت تلهج باسمك ليل نهار؛ تريد أن تراك.

خلته يعاتبني لأني لم أبكِ كما فعل، انتظر مني جوابًا لكني لم أنبس بحرف، وظللت أحدق في الطعام الذي كان أمامي. مسح عينيه مرةً أخرى ثم أردف يقول:

ـ أعرف مدى انصدامك للخبر لكن تظلّ الأمانة في الحفظ حتى يأتي صاحبها فيأخذها.

أردت أن أسأله: "ولمَ لمْ ينتظر حتى تحقق أمنيتها اليتيمة؟" لم أستوعب أن أمي ماتت قبل أن تراني. نهضنا وكدنا نغادر المطعم دون دفع ثمن ما أكلناه، لولا أن النادل نبهنا لذلك بطريقة غير لائقة؛ ظنًا منه أننا افتعلنا تلك الحركة.

أسرعنا نحو المستشفى حتى وصلنا إلى الحارس الذي منعنا من الدخول. أخبرناه أننا لن ندخل من أجل الزيارة، بل لأخذ جثة الميت. رفض أيضًا وقال إنه لا فرق بالنسبة إليه، كما يمكننا أخذ الجثة عند السماح بوقت الزيارات. حاولنا إقناعه بأن زيارة الحي غير زيارة الميت لكنه أصرَّ على رأيه.

اقترح الحاج حمود أن نذهب إلى مدير المستشفى ونأخذ الإذن منه، فقلت له لا داعي لذلك، فالاستعجال كان من أجل اللقاء، أما وقد ماتت فلم يعد لهذا أي معنى. لسببٍ لا أعرفه خطر على بالي أمر حسناء الوادي، هل انتظرتني كثيرًا؟ ماذا لو أصابها مكروه قبل أن ألتقي بها؟

همهم الحاج حمود وبدأ يتذمر ويلوم هذا المجتمع الذي لم يفهمه. واتصل بأخي ليخبره بالواقع. لم يوافق أخي أيضًا على ذهابنا إلى إدارة المستشفى، وقال إنهم بدأوا بتغسيل الجثة وتجهيزها، وقد اتصل بسيارة نقل الموتى لتأخذها إلى القرية، فلننتظر حتى يأتينا.

الفصل الرابع

عندمـا رآني أخـي وهو بجانب سـائق سـيارة الموتى غادر السـيارة واتجه نحـوي باكيا. احتضنني بقـوة، لا أعرف هل كان بكاؤه اشتياقاً إليَّ، أم يبكي أمي، أم يبكينا الاثنين معاً. أخبرني أنني لست في حالة جيدة، هو أيضًا لم يكن في حالةٍ جيدة؛ فقد أصبح جسـمه نحيلًا وعيناه غائرتين. قال إنه سـيرافق سـيارة نقل الموتى، أما أنا والحاج حمود فطلب منا أن نكتري سـيارة أخرى ونأخذ أشـياءه التي أخذها من أجل مرافقة أمي ثم نتبعهم.

قال الحاج حمود إنه يعرف من يمكنه تأمين سيارة، فاتصل بصديقٍ له. أخذنا أغراض أخي التي بقيت في المستشـفى ثم ركبنا السـيارة وانطلقنا. كان الوقت ظهرًا وأشـعة الشمس تلفـح الجلود، لم أشـأ أن تظلَّ عينـاي مفتوحتين، فقد كنت أشـعر بأنهمـا يحترقان وصدغي يؤلمني. أسـندت رأسـي إلى نافـذة السـيارة ولم أشـعر بنفسـي إلا عندما أوقفنا عسـكر التفتيـش في منطقـة نُقم. أعدنا ما بعثرته أيدي العسـكر ثم واصلنا طريقنا.

وصلنـا الطريق الفرعي للقرية.. كانت سـيارة نقل الموتى

تنتظر وصولنا حتى نساعد أخي بحمل الجنازة، كون السيارة لا تنزل إلى القرية.

حمل أخي مؤخرة النعش هو والحاج حمود، بينما حملتُ المقدمة لوحدي، وبدأت أشعر بالتعب، بعد دقائق رأينا أناساً قادمين لمساعدتنا.

كان الناس مجتمعين حول بيتنا. الصغار خائفون، عجائز يبكين ويمشين مع عكاكيزهن يرددن التسابيح والاستغفار، الرجال بعضهم واقف والآخر يتكئ على جدار يشرب سيجارة، نظراتهم جامدة تحاول التعبير عن الحزن.

التفّ الناس حول الجنازة وأخذوها من أيدينا طلبًا للثواب، وأدخلوها إلى بيتنا الذي كان مكتظًا بالمعزين. حاولت أن أبقى خارج البيت لألتقط أنفاسي قليلًا، إلّا أن أخي أمسك بيدي ومرّ بنا في بهو البيت بين جموع العجائز والأطفال المنتظرين رؤية الميّت. بعضهم كان يصيح أن يفسحوا لأبناء المرحومة، أفسح لنا البعض، عدا بعض العجائز والنساء اللاتي كنّ يحملن أطفالهن على خصورهن، فنقف برهة حتى تمشي عجوزٌ أو طفلٌ ثم نواصل التقدم. دخلنا غرفة الضيوف المكتظة بأقارب أمي. جلست على صندوق خشبي أسفل الغرفة، لكن أخي سحبني إلى جانب النعش فهناك كرسيان بالقرب منه كانا قد أُعدّا لنا. امتلأ البيت بنواح

وعويـل نسـاء القريـة، أمـا العجائـز فكنَّ يـرددن التسـبيح بصوت خفيض، وأحيانًا يمسحن أنوفهن ويأخذن نفسًا سريعًا وكأنهن يبكين.

اقتـرب أخـي مـن النعـش وفتـح الكفـن ليـرى وجههـا فانسـكبت الدمـوع من عينيـه، وانحنـى لتقبيلها وعـاد إلى مكانـه. نظـر نحوي باكيـاً وأشـار بعينه نحـو النعش لأقوم بنفـس ما قـام به. اقتربتُ من النعش لأرى وجهها شـاحبًا، أما عيناها فكانتا ضامرتين جدًا، وحولهما هالة سـوداء. تمنّيت لو أنها لم تمت لتراني، ولكن فات الوقت.

يقولون إن الميت يسـمع من حوله، شـعرت برغبة للتحدث إليها، فأخبرها أنني أصلي كل الفروض وسـألتها إن كانت راضيةً عني أم لا. نبهني أخي أن أسرع، فهناك من يريد رؤيتها أيضاً. انحنيت لتقبيلها وعدت إلى حيث كنت.

منـذ الصبـاح لم أدخـل حمامًـا، وكنت أشـعر أن مثانتي سـتتفجر في أي لحظـة. حاولت أن أنهض لكن أخي أمسـك بيـدي وأقعدنـي. سـألته عـن السـبب فقـال إن أعيـن الجميع علينـا. ظـلّ الجميـع صامتين لدقائـق، وظللت أحّـدق في من حولي. العجائز ممسكات بعكاكيزهن، أيديهن ورؤوسهن تهتـزّ بحركـة بطيئة تلخص البؤس الذي يعشـنه. في الطرف الآخـر من المكان نسـاء يحاولن إسـكات أطفالهن حتى لا

يسببوا إزعاجًا، شدتني أمٌ بجانب الباب تمامًا، كانت تجلس القرفصاء وتحمل طفلها في حضنها وتهزّه بحركة تلقائية وكأنها آلة، كان الطفل يرى أمه تبكي فينزعج لذلك، فيمد يده نحو فمها يحاول إضحاكها، لكن الأم كانت تبعد يده وتستمر في البكاء.

هل هذه الأم تبكي حقًا، أم أنها تتظاهر أمام الحضور؟ لم لا تبتسم لطفلها حتى يهدأ قلبه قليلًا؟ يُقال أن النساء يحبن حضور ندب الميت لإخراج تلك الهموم والآلام التي لم تستطع التعبير عنهم أمام من تعيش معهم.

بدأ محبو الفقيدة يدخلون لرؤيتها، مللت من الجلوس فأتتني الرغبة لتدخين سيجارة ولولا أن أخي سيمسك بي ويتلوا عليّ بعض القواعد لخرجت من المكان ولدخنت ثم عدت. دخلت نادينكا وقد احمرّت عيناها من البكاء، كأنها تبكي لبكاء البقية لا أكثر، لاحظت أن نهديها ووركيها بارزة في تلك الملابس، نعومة وجهها ورشاقة قدّها أغرتني برغبة جامحة لممارسة الحب معها. نظرت نحو نادينكا حيث جلست في الجهة المقابلة لي، حاولت أن أبتسم لها لكنها أشاحت بوجهها عني وظلّت تحدق إلى الأرض.

دخل رجلٌ ملتحٍ، يعتمر قبّعة بيضاء معصوبة بشالٍ أحمر، نظر نحو النعشِ ثم صاح من باب الغرفة بأن الجميع قد

وصلوا لحمـل الجنازة إلى الجامع للصلاة عليها. حاولت بعض النسـوة تأخير خروج النعش لكن الرجل صاح قائلًا: "إكرام الميـت دفنه، والبقاء لله، ادعوا لها وتصدقوا لأجلها فهذا ما سـينفعها". دخل أربعة رجال فحدثت جلبة مع خروجهم؛ بكاء وصراخ، وبعض النسوة كنّ يلوحن بأيديهن وكأنهن يحاولن التشـبث بالنعـش. كان لديَّ إحسـاس أن ذلـك البكاء ليس إلا نوعًـا من النفاق المسـتحب، ولو رجعن إلـى بيوتهن لخلعن قنـاع الحزن قبـل تجاوزهن عتبة باب البيت، ولمارسـن الحب مع أزواجهن أيضا.

خرجنـا مهللين باتجاه جامع القرية، وصلّينا على الميتة ثم اتجهنـا سـريعًا نحو المقبـرة. كنت أتذكّر قديمًـا أننا كنا نمشـي بخطـواتٍ متئـدة ونهلـل بلحـنٍ بطـيء يشـعرك برهبة الموقف، أما ذاكَ اليوم فتهليلاتهم سريعة، وكانوا يسرعون فـي المشـي. أردت أن أسـألهم عـن سـبب كل تلـك العجلة، أخبرنـي أخـي أن الميّت تنتظـره روضة من ريـاض الجنة وهو يراهـا الآن أمـام عينيـه ويتلهـف للقياهـا، ونحن الآن نسـرع لنسدي له معروفًا بالوصول أسرع لدخول جنته.

فكّـرت في نفسـي: "وماذا لو أن بانتظـاره حفرة من النار وثعبانٌ أقرع، ألا تسـدون له معروفًا بالتأني؟" لم أكن أقصد أمـي طبعًـا؛ فـإن كان هناك من يسـتحق دخول جنـة ما فهي

أولّهم، ثم ماذا لو أنه لا يوجد روضة ولا نار أو ثعبانٌ أقرع ينتظره في القبر؟

كنت أودّ أن أسأل أخي، منذ متى بدأوا بتطبيق هذه الطقوس، فأنا أذكر أننا كنا قديمًا نلحن التهليل ببطء فتشعر معها برهبة غريبة، ترغمك على البكاء حتى وإن كان لك قلبٌ من حديد، فيظلّ ذلك الموقف حاضرًا في ذاكرتك لأيام وربما لأسابيع، وبعضها قد يعلق في الذاكرة طيلة العمر. كيف تغير الأمر بكل هذه السرعة؟ أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسي، لكن الوقت كان غير ملائم، ولكن إذا تُركَ الأمر لي فسأوصيهم أن يرموا بجثتي في البحر لتأكلها الحيتان لأنها أسرع من دود الأرض، كما أن النار والثعبان الأقرع لا يلائمها الماء، وبهذا سأعيش ببرودٍ وسلام.

بقيت أفكر في أجوبة لتلك الأسئلة حتى وصلنا المقبرة، انقسم الحشد إلى نصفين؛ جماعة اهتمت بأمور الدفن وأخرى اجتمعت لقراءة سورة ياسين. حاولت الجلوس مع جماعة القراءة، لكني رأيت أن ذلك مملًا، وأنا لا أحفظ السورة جيدًا، فاتجهت إلى جماعة الدفن. كان الأطفال يحاولون استراق نظرة إلى القبر والفزع يسكن أعينهم، وكان الكبار يحجبون عنهم الرؤية. ربع ساعة فقط وانتهينا من الدفن.

ونحـن عائـدون هطـل المطـر على القريـة بغـزارة. هرول الناس نحو بيوتهم، كان بعضهم يقول: "يا لها من روح طيبة، السـماء تمطر على بركتها". شـعرت بالفخر، لكن هل حقًا أمطرت السماء لتبارك روح أمي؟

كنت أمشـي بجوار رجلٍ نحيل جدًا، كأنه سيسـقط في أي لحظة، سألني:

ـ هل أنت ابنها؟

هززت رأسي مجيبًا. ترحّم عليها وبقي يهرول معي.

دخلنا القريـة، فرأيت فتاة مبرقعة، تلبس جلبابًا يصل إلى الأرض، تمشـي باسـتحياء مبالغ لكن محاسن جسمها بادية من خلف ذلك الجلباب الأسود، ومع هبوب الرياح كان لباسها يلتصق بجسمها فيبدو ذلك مغريًا إلى درجة تجعلك تتخيل بقية تفاصيلهـا. لاحـت على مخيلتي الحسـناء بقدّهـا الجميل، ثم نادينـكا عندما دخلت غرفة الضيـوف بثوبها الفضفاض وأنا أتخيل جسـمها من خلفه فاعترتني رغبة لمضاجعتها. أسرعت في المشي أفكّر في ذلك حتى وصلت البيت.

الفصل الخامس

قُـدِّمَ لنـا العشـاء، وكان جيـدًا؛ فقـد أكلنـا لحم كبد مفرومـاً مع خبز سـاخن، طبيخاً بالخضـار، فطائر بالجبن، وسـلطة خضـار. بعد العشـاء قُدّم لنـا صحنان مـن الفاكهة؛ أحدهما مانجو والآخر عنب، وطبق به تمر مع قهوة شعبية.

لا أعرف متى تسنى لأخي شراء كل تلك الأشياء، ولم في هذا اليوم بالتحديد؟ شـعرت أنه يحتفل، لكن من أجل ماذا؟ من أجل موت أمي؟ شيء غير منطقي، أو قد يكون منطقي، مـن يـدري؟ لكـن إن كان حزينًا لـم يقدم للضيـوف أكلًا طيبًـا في الأحـزان كما يقدمهـا في الأفـراح؟ الأكل يجلب السعادة، والسعادة هي الاحتفال، ونحن هكذا نحتفل بموت أمـي، لذا مـا كان يجب علينـا أن نقدم لأحـد الأكل؛ حتى يشعر الآخرون بمدى بؤس هذه الحياة دون طعام فيحزنوا.

كان أخـي وأختي حزينين، ولا يرفعان أعينهما إلا عندما يتحدث أحدنا. نظرت نادينكا نحوي وأحسسـت أنها تبسمت لـي، ابتسـمت لهـا دون أن يشـعر البقيـة بذلـك. ظـلّ الجميع صامتين حتى قال أخي:

ـ المـوت هو قضاء وقدر، وكم تمنيت أن تكحِّل عينيها

برؤية أخي أدهم.

أردت إخباره بأني بعت عقد الذهب التي أهديته لنادينكا يوم عرسنا لأحقق لأمي تلك الأمنية، وما حدث ليس خطأي.

نظر أخي نحوي وقال بصوتٍ واهن:

ـ لنرضى بحكمة الله يا أخي، وأرى أن نخلد إلى النوم فالإرهاق يكاد يلحقني بأمي.

قمت وقامت نادينكا، سُعدت لخطوتها تلك، فقد كدت أخاف أن ترفض مرافقتي للنوم بحجة حزننا. دخلنا غرفة نومنا، كانت مرتّبة، ورائحة عطر جميلة كانت تفوح منها. خلعت نادينكا ملابسها لتنام فبدا لي جمالها وكأنه تضاعف. اقتربت لأحتضنها لكنها أبعدتني بحجة أننا في مأتم ويجب علينا احترام الميت. ظللت أداعبها وأقنعها أن هناك حرمة للحي، أما الميت فقد غادر هذا المسرح إلى حيث لا ندري، والحي أبقى من الميت. أحسست أنها اقتنعت، وبدأت تقبلني وتبكي. أخبرتني أنها خائفة، وأنها تريد أن تعود إلى روسيا. وعدتها أن نعود حين ننهي أيام العزاء السبعة، وحتمًا سنعيش حياة رائعة وجميلة. كنت أشعر بالذنب وأنا أقول تلك الكلمات الأخيرة، فأين الروعة والجمال في مجموعة من المآتم؟

ظللنا نتبادل القُبل والهمسات، حتى غصنا في بعضنا

واندمجت أجسامنا، ثم نمنا.

الفصل السادس

استيقظت صباح اليوم التالي متأخرًا ومرهقًا جدًا، كان عليَّ أن آخذ حمامًا ساخنًا. وجدت في مخزن بيتنا أغراضاً كثيرة؛ رز وسكر، تمور، أدوات تنظيف، تبغ، سلال فواكه وأشياء أخرى لم أتبينها، سألت نادينكا من أحضرها؟ فأخبرتني أنها هدايا الضيوف الذين زارونا بالأمس، فعرفت من أين أتى عشاء أمس الجيد.

أذّن المؤذن لصلاة الظهر، لكني لم أذهب وفضّلت الذهاب لشراء سجائر. كنت أشعر بارتياح نفسي لتصرفي بحرية؛ وكأن قيدًا من قيودي قد انفكّ.

تذكرتُ حسناء الوادي، لا أعرف ما تلك الرغبة التي انتابتني للقاء تلك الفتاة الجميلة، فرغم أن السماء الملبدة بالغيوم توحي بيوم ماطر إلا إني ذهبت نحو الوادي دون أن آبه لشيء. انتظرتها حيث التقيتها في المرة الأخيرة، وبدأت أدخن سيجارتي وأدندن ببعض الأغاني حتى أطلّت الفتاة تحمل وعاءها الفارغ باتجاه سدّ القرية. عرفتها فانفرجت

أساريري. بدأت الغيوم تتحرك في السماء وكأنها سيارات إسعاف انطلقت سريعًا لتصل في الوقت المناسب، الطيور تتسابق في العودة إلى أعشاشها قبل أن يهطل المطر.

رفعت عينيّ نحو الفتاة، كانت قد اقتربت مني فابتسمت تلقائياً. سلّمت عليَّ ثم قالت:

ـ ما كنت أتوقع وجودك هنا اليوم؟

كأنها تعاتبني هي الأخرى، أخبرتها أني حزين لأجل أمي لكن ماذا عساي أن أفعل. هدأت قليلًا ثم سألتها:

ـ هل تأتين كل يوم لجلب الماء؟

أجابت بنبرة تتم عن الملل:

ـ ما دمنا عائشين.

ظللت أحدق في وجهها الملثّم، يا لجمال عينيها، كنت أشعر أنهما عيني طفلة وديعة. كانت تمتلك قوامًا ممشوقًا، وصوتاً تمتلئ نبراته بالجاذبية.

كانت تنظر إليَّ وكأنها تحاول فهم شيء بداخلي، سألتها بجراءة:

ـ هل أحببتِ من قبل؟

لا أعرف لماذا سألتها، ولكني كنت أنتظر جوابًا جادًا، قالت:

ـ أحببت مرةً أحدهم، ولكنه لم ينتبه لذلك.

سألتها:

ـ لماذا لم تخبريه؟

ضحكت باستهزاء ثم قالت:

ـ وهل تراني مجنونة؟

ضحكت أنا أيضًا، وقلت محاولًا إظهار شيء من الحكمة:

ـ الجنون أن يكتم المرء حبًا تملّك قلبه.

قالت وهي تمشي نحو السدّ:

ـ إنه الموت.

سألتها وكأني لا أعرف:

ـ أتقصدين الحب؟

ـ هنا، الحب والموت سواء.

أردت أن أسألها عن مقصدها، لكن البرَد بدأ يهطل على الوادي، والبروق تلمع في السماء كأنها تحاول قسمها نصفين، نظرت بحثاً عن مكانٍ يقينا هذا البرَد فرأيت تجويفًا صخريًا، وطلبت من الحسناء أن تتبعني. أسرعنا نحوه وكانت فقد حمت رأسها بالسطل الذي تحمله، وارتطام البرد على السطل يحدث أصواتًا وكأنها طبلٌ أفريقي في

يد معتوه.

كانت أنفاسنا تتضارب، وبدأت الحسناء تسعل بطريقة غير طبيعية. طلبت منها أن تنزل اللثام حتى تستطيع التنفس لكنها رفضت، وبقيت تسعل. اقتربت منها وحضنتها بيدي اليسرى من خصرها ممسكًا بكلتا يديها. ودون مقاومة كانت ترتعش وكأنها تعرضّت لصدمة كهربائية، وبطريقة مازحة سحبتُ اللثام الذي يغطي وجهها وأنا أقول:

ـ تريدين قتل نفسك، أما يكفي أن جمالك هذا يقتلني!

كانت تمتلك وجهًا جميلًا، تكسوه حمرة، خداها ممتلئان ولسانها كان يقفز عندما تسعل. سألتها بعد أن هدأت نوبة السعال:

ـ هل كنتِ ستبقين كذلك إن لم أنزل اللثمة؟

ـ حتى أموت.

قلتُ بمزاح:

ـ إذن فأنتِ مدينة لي بحياتك؛ فقد أنقذتك.

قالت بمزاحٍ يخالطه قليل من الجدية:

ـ لم أطلبْ منك ذلك.

أخبرتها أنها جميلة، وأنها دون لثام أجمل. ابتسمت بحياء دون أن تجيب وأشاحت بوجهها عني. كان البَرَد يضرب

المحاصيـل، وكان ذلـك يزعجهـا كثيرًا، فرفَعـت مقلتيها نحو السماء تدعو:

ـ لقـد تعبنا يا الله طيلة السـنة حتى أصبـح زرعنا مثمرًا، اللهم سلّم.

بقيت أدعو معها حتى هدأ البرد وبدأ المطر الطبيعي يهطل على الوادي.

قالت وهي تبتسم:

ـ إن الله يحب أهل قريتي، انظر كيف استجاب لدعائنا.

كدت أصدقها. اكتظّت الجداول بمياه الأمطار، وبدأت بعض جدران المدرجات الزراعية تنجرف مع السـيول. حدقت بعيـدًا باتجاه الجبال البعيدة وقطـرات المطر تلمع في قممها فتبدو كأنها لآلِئ.

كانـت قد أعادت اللثام على وجهها. سـألتها عن السـبب فأخبرتني أنه عيب، وأن ديننا أمرنا بذلك. فكّرت لو أخبرها بأن ديننا لم يأمرنا بذلك، لكننا سـندخل في نقاش لا طائل منه، وبقيت أنظر إلى عينيها التي أجد فيها كل الأجوبة التي أبحث عنها، ومنها تنبعث أسئلة لا أعرف لها أجوبة.

وضعَت السطل مقلوبًا على الأرض ثم جلست عليه. شرَعت تسألني عن النساء في روسيا؛ هل هن جميلات! أخبرتها أنهن جميـلات لكـن ليس بقدر جمالها. لأول مـرةٍ في حياتي أقول

هـذه الجملـة لفتـاة وأنـا على يقين بأني لسـت أكـذب. بدت سـعيدة لمـا قلته، وزاد ذلك من سـعادتي أيضًا. كنت أشـعر بخجلهـا ومـدى خوفهـا، أصابع يديهـا البيضاء كشـمعتين تدغـدغ زهرة أقحوان نبتت بجوار الصخرة القريبة منها. ظلّت أصابعهـا تلاعـب تلـك الزهـرة وكأنهـا تطلـب الإذن قبل أن تُقطف. قطفت الزهرة فباغتها سؤالي:

ـ كيف تريدين أن تكون حياتك في المستقبل؟

بألم قالت:

ـ أريدها أقل بؤسًا من هذه التي أعيشها الآن.

ـ كيف؟

ـ لا أريـد أن أحمل هذا السـطل كل يـوم، أريد أن أعمل أي شيء آخر.

سكتت قليلًا ثم قالت بنبرة تنطوي على الخيبة:

ـ كنـت أريـد من قبـل أن أكون مثـل أروى بنت ش. ق.، لكني تنازلت عن هذا الحلم.

قاطعتها سائلًا عن أروى هذه، فقالت:

ـ إنها فتاة أبت إلا أن تكمل تعليمها الجامعي، كان أهل القرية يستنكرون عليها ذلك، وكانوا يقولون إنها تذهب إلى الجامعة بغية اسـتعراض جسمها، وملاعبة الشباب الطائش،

أتمّـت تعليمها الجامعي، لكن المسـكينة لم يتزوجها أحد؛ لقد خاف شباب أهل قريتي من أن تكون قد دخلت في علاقة غراميـة مـع أحدهم في الجامعة، وكمـا تعرف أن الحب هنا محرم قبل الزواج.

سألتها باهتمام:

ـ لم كل هذا التحفظ؟

أجابت:

ـ لأن ديننا يأمرنا بهذا.

لبرهـة خيّـم الصمـت علينـا، ثم تذكّـرت الكتـب التي قرأتها، فسألتها:

ـ أي الكتب قرأتها في حياتك؟

شـعرت أنه سـؤال سـاذج لفتاةٍ قروية؛ لكني كنت أنتظر الإجابة منها بجدية، فقالت:

ـ قرأت القرآن، وبعض كتب الحديث والسيرة النبوية.

ـ وهل تظنين أن ذلك يكفي؟

ـ يقـول أبي إن القـرآن كتاب جمع الله فيه كل العلوم، لذا فهو يكفي.

ـ هل تؤمنين بما يقول؟

ـ لـم اقرأ كتباً أخرى حتى أعرف إن كان هناك أشـياء

يجب عليَّ معرفتها أم لا ، ولكني أعتقد أنه يكفي، وأحيانًا أشعر أنه لا يجيب عن كل ما في عقلي من تساؤلات.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أعرف..

سكتت، وبلهجة تسترعي الاهتمام قالت:

دعك من هذا الآن وأخبرني؛ هل تعتقد أن الحياة يمكن أن تصبح أجمل في المستقبل؟

ـ ولم لا؟

ـ متى برأيك؟

ـ إذا أصبح لحرياتنا معنى.

سكتت وكأنها تفكر في ما قلته، بينما ظللتُ أداعب الحشائش المخضلَّة برذاذ المطر.

سألتني عن عودتي، فأخبرتها أنني سأعود عما قريب، فأنا أتيت من أجل أمي، وها هي قد ماتت. دعت لها بالرحمة ثم طلبت مني أن أحدثها عن روسيا وعن طريقة العيش فيها.

كانت تصغي إليّ بكل جوارحها ، وبين الفينة والأخرى تبتسم بحياء. أحسست فجأة أني أحبها ، فبدأت أحدثها عن بعض الأماكن في روسيا ، وعنا نحن الاثنان لو أننا في إحدى تلك الأماكن الجميلة. أمسكت بيدي لتمسحها بحنان.

اقتربت منها وقبّلتها. كنت أشعر تارةً وكأننا عاشقان نعرف بعضاً منذ سـنين طويلة، وأخرى أشـعر بمدى سذاجتي. أردت أن أخبرهـا بأنـي أحبها لكن صوت البرَد عاد بغزارة فشـتت انتباهنـا. كنـا نرى الزرع يتهالك، فبـدأت تدعو الله أن يرفع البرد عن القرية وأنا أدعو معها، لكن البرد ظلّ يهشِّـم الزرع حتـى صارت الثمار كلها مخلوطةً بطين الجداول. رأيتُ مدى حزنهـا وعينيها المغرورقتين بالدموع فرأفـت لحالها، نظرَت نحوي بحزن ثم قالت:

ـ لقد غضب الله على أهل قريتي؛ لأني عصيته، سامحني يا الله.

كان حديثها مضطربًا. نظرَت نحوي بتوتر ثم قالت:

ـ هل تظن أن الله سيعذبني لأني عصيته؟

أجبتها قائلًا:

ـ وهل تظنين أن هناك من هو بلا ذنوب؟ لقد أتينا إلى هذه الأرض لنكون مذنبين لا أكثر.

ـ ولكن الله رآنا ونحن نعصيه، ولم نستح منه.. يا لنا من قليلَيْ حياء.

كانـت متوتـرة بصـورة غيـر طبيعيـة، خافـت أن يراهـا أحدهـم وهي معـي. قالت بصـوتٍ خائف إنها لا بـد أن تذهب لملء السـطل وتعود إلـى البيت؛ فالمطر قد خـفّ، ورغم أني

أخبرتها أن لا داعي لجلب للماء؛ فقد هطل المطر وامتلأت خزّانات القرية بمياه سطوح المنازل، إلا أنها أصرّت على أن تملأه، فهي تستحي أن تعود بالوعاء فارغًا.

ذهبت نحو السدّ، وبقيت أنتظرها تحت التجويف الصخري أدندن متنقلًا بعيني في أرجاء المكان.

مضت نصف ساعة ولم تعد بعد، فانتابني شعورٌ بالقلق تجاهها. تركت المكان وانطلقت باتجاه السدّ؛ لأنظر سبب تأخرها. وصلت إلى السدّ وكانت مياهه راكدة بعد المطر، كان الوعاء طافيًا فوق سطح الماء مملوءًا ثلثه، نظرت نحو الطرف الآخر لأجد لثامها طافيًا أيضاً وكأنه يعلن انتصاره وتحرره منها. لبرهة ظللت أفكر: "كانت قبل قليل تبتسم بوجهها الملائكي، وتدعو لأجل زرع القرية، يا إلهي! ما الذي حدث؟". لم أستطع ترك ذلك الجسم الجميل في ذلك السدّ الراكد، لذا قررت إخراجها. أذكر عندما أتمّ أهل القرية حفر السدّ ـ قبل سنوات ـ كان عمقه قرابة العشرة أمتار، وأنا لست بالغوّاص الماهر، لكن سأحاول فلا خسارة في المحاولة.

كانت السماء صافية والمطر قد انتهى إلا من الرذاذ الناعم، مصحوبًا بهواء كان يهبّ مدغدغًا الأشجار، وبدأت أسمع أصوات أهالي القرية ينتشرون في الأرجاء يتفقدون

مدرجاتهـم الزراعيـة التي أفسـد البَرَد ثمارها. كنت أسـمع الناس يهللون ويسـتغفرون على ذنوبهم التي بسـببها أهلك الله زرعهم فأصبح حُطاما.

رغـم الجـو البـارد إلا إنـي لـم أكن أشـعر بالبـرد. خلعت ملابسـي ووضعتهـا جانبًـا ثم شـرعت أغوص عميقًـا. كنت أفكّـر بمـدى رعـب وحـل السـدّ عندمـا تصلـه فتـاة بشـعر مكشـوف، في هلع الطفيليات وهي ترى هذا الجسم الغريب الـذي اقتحم عالمهـا المحجوب عن الأعيـن. حاولت الوصول لأقصـى حد ممكـن لألمس قطعة ثوب أو أي جسـد، بيد أن رئتيَّ لم تسـعفاني بأوكسجين كافٍ للاستمرار أكثر حتى أجد ما أبحث عنه، خصوصًا وأن الماء الراكد كان يدفعني نحو الأعلى. عدت إلى سـطح الماء، اسـتعدت أنفاسـي آخذًا شـهيقًا وزفيرًا، وبعد أن شعرت باسـتعدادي لإعادة المحاولة حبسـت تلـك الأنفـاس وكأنـي أحتفظ بهـا لتلـك اللحظات الحرجـة، ثـم مرةً أخرى غصت. وأنا بيـن ظلمات الماء كنت أحاول فتح عينيَّ لأرى جسـم الحسناء، بيد أني ما كنت أرى سوى أغشية صفراء، رمادية، سوداء، لا أعرف أي لون، فقد كانت تتداخل عليّ. لم أسـتطع إبقاء عينـيَّ مفتوحتين، فقد كنت أشـعر بذرّات التراب المختلطة بالماء تحاول اكتساح عينـيّ وكأنهـا تحاول حجبي لاكتشـاف أي جديـد. حاولت

قـدر الإمـكان أن أغوص بسـرعة أكبر حتـى لا ينفد ما في رئتيّ من الهواء، وظللت كذلك حتى لمست طينًا، استبشرت حينهـا كونـي وصلـت القـاع، وبدأت فقـط أتنقل بجسـمي ويـداي أمامي كأعمى يحاول معرفة الطريق. في القاع هناك أحجـار وأشـواك وكل شـيءٍ يمكنـك تخيّله جرّاء السـيول الجارفة التي تمرّ ابتداءً بالجبال العالية وانتهاءً بالأودية. بدأت رئتـاي تعلنان نفـاد الهواء، وفكّرت بالعودة إلى السـطح لولا أن يديَّ المتخبطتين في الماء لمسـت ثوبًا. تحسسـت ما خلف الثوب فاتضح لي أنه جسم إنسان، ولا بد أن تكون الحسناء. أمسـكت بذلك الجسـم ثم جاهدًا حاولت العـودة إلى أعلى، فكنت قد بدأت أشعر بالاختناق، وقد أموت أيضًا إن تأخرت قليـلاً. وأنـا أحاول الخـروج من ذلك السـدّ القاتل شـعرت أن السـطح قد اختفى، وأن طوفان نـوح في لحظةٍ قد عمّ الأرض فشـكّلت جبـالٌ ضخمـة من المـاء. كدت أتخلى عن جسـم الحسـناء عندمـا شـعرت بالاختنـاق أكثر، لـولا أني وصلت سـطح السـدّ وتنفسـت أخيرًا الحياة. لقد كنت أسـعل بقوة، وأنفاسـي تتسـارع كمن وقف بعد أن كان يركض بسـرعة مائـة كيلـو متـر في السـاعة. بعـد أن هـدأت حاولـت النظر في الجسـم الذي حررتـه قبل قليل من ذلك السـجن الغريب، فأمسكت بجسدها جيدًا ثم بدأت أسبح باتجاه مخرج السدّ. تعبـت قبـل أن أوصلها إلى خارج السـدّ تمامًا، لكني اقتربت

من المخرج قليلًا وأسـندتها إلى الجدار الإسـمنتي. وأنا أنظر نحـو وجههـا المغطـى بشـعرها الكـثّ وكأنه يقـوم بمهمة اللثمـة ـ التـي تحـررت منها قبل قليـل ـ فبدا وجههـا الجميل صامتًا هذه المرة. شـفتاها الزهراوين مرسـومتان على وجهها بعناية فائقة، خالتني رغبة في تقبيلهما ففعلت. سـمعت صوتاً لا أعرف مصدره، إذ صرخ فجأة:

ـ فضيحة يا أهل القرية.. فضيحة.

كان يصيـح بـكل ما أوتي مـن قوة، ويركـض مذعورًا باتجـاه القريـة وكأنـه يحذرهـم مـن جيـش علـى وشـك أن يغيـر عليهم. أسـرعت في إخـراج الفتاة من السـدّ. بدأ الناس يتوافـدون نحو السـدّ حتى أصبـح المكان مكتظًا بالنسـاء والرجـال والعجائـز، ونظرات الحقـد والازدراء تحيط بي من كل مكان. صاح أحدهم:

ـ لقد رأيته يقبّلها ويحتضنها بشهوة.

صاح آخر:

ـ إذن هو من قتلها.

صوت امرأة من خلف لثامها:

ـ يبدو أنها لم تتصَع لشهوته فقتلها، يا له من مجرم.

وأنا أحاول إقناعهم بأني لسـت السـبب فـي موتها، لكن

صخب أصواتهم كان يجعلني أصمت.

سكت الجمع لبرهة فأخبرتهم بالحقيقة:

ـ لـم أقتلها، كنا نتحـدث تحت التجويف الصخري معًا، ثم ...

صاح أحدهم غاضباً:

ـ خلوَتُك بها والحديث إليها جريمة تستحق القتل عليها.

صوتٌ آخر:

ـ اللعنة عليك أيها المجرم.

تداخلت الأصوات ببعضها: "يجب أن ننتبه منذ..، هذا عمل لا يرضي اللـ..، دعوني أقتله ولـ..".

كلٌّ يحـاول إثبـات وجـوده بتوجيـه الشـتائم والتهديدات نحـوي. جاء رجل أربعيني، عريض المنكبين ذو لحية نصفها مبعثـرة البيـاض. صاح مَن حولـي بالأطفـال والمتجمهرين أن يفسـحوا للحاج سعيد ليرى ابنته. لم يقل شيئًا، نظر نحو ابنته بحـزن ثم نظر نحوي، وظلّ يحدّق فـي وجهي بنظرات مبهمة. قفز نحوي وهو يردد:

ـ يجب أن تلحق بأمك أيها اللعين.

اعترضه اثنان أحدهما أخي، وكاد يقتل أخي بجلافته.

ظـلّ أخي والآخر ممسـكيْن بالحاج سـعيد حتـى هدأ ثم

بـدأوا يتناقشـون؛ هل يتركون أبا الفتـاة يقتص لابنته مني أم يسـلمونني للعدالـة لتتكفـل بالأمـر؟ رفض أخي أن يمسـني أحد بسـوء، وطلـب أن يحيل القضيـة إلى القضـاء، وما تراه المحكمـة يُنفّـذ. أردت إخبارهـم بأنـي لـم أقتلهـا، وكلما حاولت التحدث تسكتني أصواتهم وتشتمني.

صاح أحدهم وهو ينظر إليَّ بغضب:

ـ إنه هو، انظروا كيف يرتعد من الخوف، وإلا لما خاف هكذا.

لـم أكـن خائفًا، كنـت أشـعر بالبرد فقـط، لكنهم لا يصدقون ذلك.

خـوّف الآباء بناتهم من السـدّ بنسـج الأكاذيـب. أحدهم قـال لابنته الصغيرة إن السـدّ يأكل من يأتـي لوحده، وبدأوا يحـذرون من خروج الفتيات والنسـاء والأطفـال لوحدهم دون وجود شخص يرافقهم.

نظرت نحو الجهة الأخرى لأجد نسـاء يحاولن المشـاركة في النقاش، لكن أزواجهن أمرونهن بالعودة إلى بيوتهن.

كان الجميـع قـد اتفقـوا علـى التحفـظ عليَّ حتـى تأتي الحكومة وتتولى أمري. قيّدوا يديَّ وكلّفوا رجلين للإمساك بـي. كنت أنظـر نحو الزرع لأراه محطمًـا، وأنظر نحو قيدي فأتخيلهم قيَّدوني فقط لأني تسـببت في ذلك. إنهم لا يعرفون

ما جرى بيني وبين الحسناء وإلا لاتهموني وقالوا بأننا السبب في كل ذلك العذاب الذي أصاب القرية أيضًا، ولقالوا إنها نالت عقابها جزاء ما فعَلته. بدأنا نمشي باتجاه القرية، كان الرجل قابضاً على معصم يدي بكل ما أوتي من قوة، مع أنني لن أهرب، وكنت مستعدًا لأحلف له على ذلك، لكنه كان جلفًا وغير متفهِّم. أحدهم يتصل بمسؤول أمن المنطقة يطلب منه إرسال بعض العسكر للاطلاع على الجريمة والتحفظ عليَّ.

وصلنا القرية وبدأت أتساءل: "هل أحضروا جثة الحسناء أم نسوها؟" ربما نسوها واهتموا بأمري فقط. ولكني لم أسألهم.

تجمهروا في ساحة القرية حولي، والرجلان ممسكان بي من الطرفين. أخي كان بجانبي، وأظنه يأسف لحالي ويقول في نفسه: "لم أقدمت على مثل هذا العمل؟"

تعبت قدماي من الوقوف منتظرًا مجيء عسكر الأمن. جاءنا الشيخ حسن بعمامته ولحيته الحمراء وسبحته التي لا تفارق يديه، نظر نحوي بازدراء ثم قال بصوتٍ مرتفع:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، أما تستحي من نفسك تُقدم على عملٍ كهذا وأنت متزوج؟

كان ينتظر مني جوابًا لكني لم أجبه. استغفر وتمتم ثم

قال:

ـ أنت محظوظ أن الفتاة رمت بنفسها في السدّ وإلا لكنّا رجمناك حتى الموت.

رغبتُ أن أهشم رأسه، لكن يكفي ما أنا فيه. بدأ يسرد بعض الآيات والأحاديث عن حلم اللّه وغضبه، وعن الزنا ومن يفكر فيه، وما حل بالأقوام السابقة؛ فذكر غضب اللّه على الشعب اليهودي عندما اختلط النساء بالرجال في أكبر عملية زنا جماعي، وكان يشرح كل ذلك بحماس واندفاع شديدين، كأنه سيتحدث عني في خطبة الجمعة القادمة.

كان الجميع ينتظر مجيء العسكر، أما أنا فقد بدأت أشعر بالملل. ظلّ الحشد في غمرتهم يتحدثون عما حدث، وبعضهم كان يحاول أن يتحدث إلى أكبر قدر من المستمعين، مثلما حاول الشيخ حسن فعل ذلك. الأطفال كانوا خائفين ولديهم فضول زائد لرؤيتي وسماع ما يقوله الآخرون عني. وأنا أحاول قتل الملل وتحاشي سماع ما يقال عني بالنظر في الأرجاء، فرأيت شابًا مهرولًا نحونا وكأنه هاربٌ من أسدٍ مفترس أو ذاهبٌ لإنقاذ أحدهم من الموت. كاد يقع وهو يحاول الإسراع للوصول إلينا.. صوّت بعضهم محذّرين:

ـ أمسكوا بماهر.. أمسكوه.

كان شاباً طويلاً في مشارف العقد الثاني من عمره، ذا شارب رفيع، يلبس ثوبًا بنيًا متحزّمًا بعسيب[1] مع كوتٍ بدا لي أنه بني. من خلال الصخب تبين لي أنه أخو الحسناء. كانت حركاته جنونية وعيناه تتضحان بالشر، توقف على بعد أمتار قليلة بعد أن سمع الأصوات التي تحذّرنا من غدره، فأخرج من معطفه مسدسًا وجهه نحوي، فشتمني بصوتٍ مليء بالحقد، تجمّدت ملامح وجهه فشدّ بيده على الزناد وأطلق. أغمضت عينيَّ منتظرًا قدري المحتوم.. دوّى صوت الطلقة في أذنيَّ، وشعرت أنها أصابتني حقاً.

لقد أصابت عنق أخي. تهاوى جسده ويده ممسكةٌ بي، لكنها تراخت حتى ارتطمت بالأرض المبللة. كنت أرى أخي على الأرض ملطّخًا بالدم والطين فدارت الأرض من حولي. الجميع تفرّق صائحين بأولادهم أن يعودوا إلى البيوت، وكان طلبهم لهم يحمل جملًا توبيخية، فكنت أسمع أحدهم يقول لابنه "عد إلى البيت يا كلب يا ابن الكلب"، وبعضهم اختفى فجأة، وأظنهم هربوا خوفًا من رصاصةٍ أخرى طائشة قد تصيبهم. أما أنا فتركت الجميع بمن فيهم أخي المطروح أرضًا، والذي حاول بعض الأصدقاء إنقاذه، ثم اتجهت مقيد اليدين نحو بيتنا. لا بُدّ أن أنتقم لأخي.

١ــ حزام يمني، مشهور في اليمن

الفصل السابع

كم هو مؤلمٌ أن تصبح مقيداً.. ساعات قليلة أشعرتني بأن العمـر كله ليس له قيمة دون حرّية؛ فالكرامة معه مهدورة، والحيـاة من بعـده تصبح رقمًا لا أكثر. تحررتُ الآن من القيد الـذي كان فـي يديَّ قبل قليل، لكن قيـودًا كثيرة ما زالت تكبّلني.

رغم جسمي المبلل والطقس البارد كنت أشعر أن جسمي جذوةٌ مشـتعلة. دخلت غرفتي لأجد نادينكا نائمة، بحثت عن المسـدس فلـم أجـده. لا أريد حمـل البندقية فهي سـتحدُّ من تحركاتي. ناديت أختي فأتتني وهي تولول، وعنّفتني قائلة:

ـ لم تركتهم يقتلون أخي؟

أخبرتها أنني سـأنتقم، وطلبت منها أن تدلّني على مكان المسـدّس. قالت بأسف إن أكرم هو من خبأه، وهي لا تعرف عنه شيئًا.

الجميـع هنـا يزينـون بيوتهـم بالأسـلحة عدا أخـي أكرم يخبئها. كيف لي الآن أن أجد المسـدس وقد مات من خبأه، لـمَ تُعِـق انتقامي لـك يا أخي؟ بـدأتُ وأختي بالبحـث عنه في غرفـة القتيل، حتى وجدنـاه ملفوفًا في خرقـةٍ بيضاء. عندما

رأيت الخرقة البيضاء خُيّل لي أنني سأجد أخي بداخلها لا المسدس. التقطته، واتجهت نحو الخارج. استوقفني صوت أختي:

ـ الجو باردٌ، البس هذا المعطف.

ارتديته فاستوقفني صوتها مرةً أخرى:

ـ انتبه على نفسك يا أخي.

أخبرتها ألّا تخاف عليّ وأن تغلق على نفسها ولا تفتح لأحد غيري.

الشمس في غروبها تلخّص معاني الحياة بشكلها المهيب. كنت متشائمًا من هذا التوقيت؛ فقد كانت أمي تمنعنا من القيام بأي عمل، فالشياطين وقت الزوال تخرج من جحورها استعدادًا ليوم جديد، ولا يجب أن نكون أول من يقف أمامهم.

وضعت المسدّس بداخل المعطف، وعبرت الحقول الممتلئة بالمياه متخفياً حتى أصل إلى بيت الحاج سعيد؛ الذي سأجد فيه قاتل أخي. تواريت خلف الشجر أراقب البيت الذي يعيش فيه القاتل الفار.

ظللت أراقب مدخل البيت لعشرين دقيقة، ها هو أحدهم يخرج، وكنت أراه وكأنه الهدف المنشود. بدأ الليل يسدل أشرعته على القرية فصعبت عليّ الرؤية. كان يتلفت وكأنه يبحث عن قدره المحتوم، حدّقت أكثر لأتأكد من أنه

"ماهر"؛ أخرجت المسـدس من معطفي ووجهته صوب رقبته، لأضـع الرصاصة في المكان الذي أصـاب أخي فيه. أطلقت عليـه رصاصتيـن فتهاوى جسـده علـى الأرض. وأردتُ معرفة موضع الرصاصة.

عـدت منتشـيًا للانتصـار الذي حققتـه، أقول في نفسـي "كـم هو سـهلٌ أن تقتل أحدهم". شـعرت أني كسـرت قيدًا من القيود التي كانت تثقل كاهلي. ليتني حققت هذا النصر وأنا في روسيا، لكنت جمعت الأصدقاء وأسقيتهم نُخب ذلك الانتصار.

أهل القرية كانوا فزعين من الأحداث التي مروا بها اليوم. اسـمان ترددهما الألسـنة في القرية وسينامون وهم يفكّرون فـي هذيـن الاسـمين؛ أحدهمـا سـينطقونه بحـزن ويدعـون لصاحبـه بالرحمة والمغفرة، والآخـر بحقد، ويدعون لحامله بالموت. هما، أنا والحسناء.

وصلـت البيـت، فتحـت أختي البـاب والدموع تملأ عينيها. لـم يمضِ على وصولي سـوى دقائق حتى سـمعنا طرقات على الباب توحي بقدوم عدو لدود. حملت المسـدس استعدادًا لأي اعتداء مفاجئ، وصوتٌ يقول:

ـ افتح الباب أيها المجرم قبل أن نكسره.

أسرعت نحو نافذة الغرفة المجاورة لأستطلع هوية الطارق.

كانوا عسكر الأمن الذين اتصلوا بهم من قبل، خبأت المسدس في صندوق قديم، وفتحت الباب.

أغمي على أختي لقوة الطرقات على الباب. كدت أعنّفه على جلافته فبادروني بالتهديد. كانوا سبعة أو ثمانية أو ربما عشرة، لست أدري. اثنان منهم طلبا مني رفع يديَّ فوق رأسي، والبقية وجّهوا أسلحتهم نحوي، انقض اثنان آخران فقيداني ثم أخذاني نحو سيارة كانت تنتظرنا في الخارج. كانوا يفعلون كل ذلك وكأنهم يقلدون فيلم أكشن أمريكي من الطراز الأول.

تجمّع أهل القرية حول سيارة الأمن ينتظرون وصولي مقيدًا، أعناق النساء تشرئب من سطوح المنازل، الجميع يريد أن يرى وجه المجرم الذي حاول اغتصاب فتاة وقتلها.

كنت أسمع همهمات، ويُخيّل إليَّ أنهم كانوا ينسجون قصة الفتاة وأنا أعترضها في الطريق ويتخيلون ما حدث، كلٌّ حسب مستوى تفكيره. ولأني مجرم كبير يجمح خيالهم أكثر فيرونني أخرجها من السدّ لأحقق ما كنت أصبو إليه. يعودون إلى الواقع وقد جسّدوني أمامهم مجرمًا كما يريدون، فيبصقون على الأرض ويقذفونني بالشتائم، ثم يرجعون إلى بيوتهم ليحكون تلك القصة لأسرهم من جديد.

كانت المشـاهد أمامهم جليّة، فمن السهل جدًا أن ينسج المرء حكاية من خياله، والأسهل من ذلك أن يصدقه الناس.

وقـف العسـكر بالقرب مـن بيتنا، اثنان منهم يمسـكان بي، وينتظران مجـيء البقية بعد أن يفرغوا من تفتيش البيت. كان البعـض يحـذرون أبناءهـم مـن مغبّـة الخـروج؛ كي لا تصيبهم رصاصة طائشـة، ويحذرون الفتيات من الذهاب إلى السدّ خوفًا من مصادفة أمثالي. يبدو أنني أصبحت مشهورًا.

سـمعت بكاء نادينكا، تتخبط في المشي كأنها ثملة، كانـت تصرخ بلغتها الروسـية التي لا يعرفهـا أحدٌ غيري في القرية:

ـ كيـف تجـرأت وعملـت عملتـك الشـنيعة هـذه، يا لك مـن حقيـر، ليتني لم أتزوجـك، ولم آتِ معك إلـى هذه البلاد التعيسة.

تبيّن لي أن النسـاء يحتملن كل شـيء عدا الخيانة، لأنها بالنسبة لهن ذنبٌ لا يُغتفر، بمثابة الشرك بالله، وربما أكبر؛ فالزوجـة المؤمنة يمكنها تحمُّل العيش بصحبة رجلٍ لا يؤمن بإله، لكن يستحيل عليها استساغة الحياة برفقة امرأةٍ أخرى تشاركها فراشه.

من الذي أخبر نادينكا بكل ما حصل، وددت لو جلسـت معهـا لدقائق فأخبرها بكل ما حـدث، لكن يبدو أن الأوان

قد فات، وصدّقت ما قيل لها عني.

وأنا في طريقي نحو السيارة، أتى رجلا مهرولا نحونا من بعيد، لم أتبين ملامح وجهه جيدًا. ملابسه مبللة وملتصقة بجسمه. كان يصيح بصوتٍ مفجوع: "منير بن الحاج سعيد مقتول". قلت في نفسي "ألم يكن ماهر هو من قتل أخي؟" كنت أفكّر بعمق: "إذا كان الشيطان بدأ يومه بي حسب قول أمي، إذًا فهو من قتل منير، ولكن من سيقنع البقية أن الشيطان هو من قتل وليس أنا". حاولت بنظري تتبع الرجل الذي أعلن عن مقتل منير لأتبين الأمر لكنه ضاع بين الجموع.

هزّ الجنديان يديَّ وكأنهما يأمراني أن أتحرك نحو السيارة. شرعت سيارة الأمن بالتحرك، وأهل القرية يحاولون تهدئة نادينكا؛ لاعتقادهم أنها تبكي لأجلي. أبعدوها من المكان باتجاه بيتنا فبدأت تختفي من أمام ناظري، واختفت أختي وقريتي. أصبحتُ بعيدًا عن كل شيء ولا أدري هل سأعود إليهم أم لا.

الفصل الثامن

بقيـتُ ثلاثـة أيـام فـي السـجن الفرعـي للمحافظـة، تـم اسـتجوابي عـدة مـرات بنفس الأسـئلة التي طُرحـت عليَّ في إدارة الأمن. في اليوم الرابع ثم نقلي إلى السـجن المركزي، المخصـص للقضايـا الجنائيـة التـي يمكـث فيها السـجين أكثر من 4 سـنوات، ويقال إنه أشـد سـوءًا من الفرعي، ولم يعد هناك فرق بالنسبة لي.

اسـتيقظت صباح اليوم الخامـس مرميًا في إحدى زنزانات السـجن المركزي للمحافظة، كانـت معدتي تؤلمني جدًا، أمـا ركبتـي اليمنى فظلّت تؤلمنـي طوال اليوم بسـبب برودة السجن الزائدة، ولا أعرف لمَ لم يعطوني فراشًا لأنام عليه.

السجن مكتظ بشيوخ وشباب متفاوتي الأعمار. أحدِّق في وجوه المسـاجين طيلة اليوم، كنـت أرى في وجه كل واحد منهم مأسـاة عاشـها في حياته أرغمته علـى ارتكاب جريمةٍ أوصلته إلى هنا، وربما وصل دون أي جريمة.

الخرابيـش التي رسـمها المسـاجين على الجدران ليسـت سوى لغتهم التي لم يفهمها الآخرون، مشاعرهم المنكسرة،

حقوقهم المسلوبة، أمنياتهم التي لم تتحقق، وحياتهم التي لم تعد بالنسبة لهم سوى رقم ينتظرون انتهائه.

أتفقد الزنزانة، لقد كانت جدرانها شبه سوداء؛ لكثرة الأيادي التي لمستها، أما الأرضية فقد كانت مليئة بالبصاق والقاذورات، حدثت نفسي: "كيف اعتادوا على هذا المكان المزري؟"، لكنه لا يختلف عن الخارج.

ظللت أتابع ما يقوم به المساجين من التصرفات الجنونية والهدوء المبالغ فيه. متابعة حركات المساجين ومراقبة تعابير وجوههم كالتفكير في لغز محير يجعلك تشعر بالسعادة والتعاسة، بالشفقة والقسوة في آن واحد.

استدعاني السّجّان الذي كان يذرع الممر منذ ساعة، فقيّدني وأخذني نحو أحد المكاتب. طلب مني الانتظار، فأدى التحية العسكرية للضابط وأخبره بأمري، وبنظرة ازدراء طلب مني الدخول. سلّمت عليه وتمنيت له يومًا سعيدًا وظللت واقفًا بصمت.. حدة ملامحه ورتبته العسكرية أكسباه كاريزما قوية. ظلّ يدخن سيجارة ويقلّبُ ملفات المساجين الجدد. طلب مني الجلوس. كان مكتبه شبه مرتّب عدا بعض الأوراق المتناثرة للحالات الجديدة التي سيستجوبها اليوم. في الجدار صورة لرئيس الدولة، إلى جانبه من الجهة اليسرى علم متوسط الحجم معلّق على ماسورة حديدية. بدأ

الضابط بسـؤالي عن اسـمي فأجبته. أخذ الملف الذي كان قـد جُهّـزَ لأجلي وبدأ يقرأ فيه. أطفأ السـيجارة ثم نظر نحوي وقال:

ـ أدهـم.. قـادم مـن روسـيا ، مُتّهـم بجريمة قتـل ومحاولة اغتصاب، أليس كذلك؟

أجبته على مضض:

ـ كما يقولون.

ـ لم ذهبت إلى روسيا؟

ـ لقد طُردت بحجة أنني كنت ليبرالياً ، وأكن أعرف ما معناها ذلك الوقت.

ـ هاا.. وأين كنت تسكن في روسيا؟

ـ في موسكو

رغـم وجهه المنقبض شـعرت بلطافته عندما سـألني ذاك السـؤال، وكدت أخبره عـن تفاصيل المـكان الذي كنت أقطـن فيه، وعـن صديقي إيفان، والنـادي الذي كنا نقضي معظم لياليا فيه. استفسـرني هل قتلت الحسـناء فأجبته: لا.. تابـع أسـئلته عن سـبب عودتي وعـن حياتـي الخاصة وكنت أجيبـه بـكل مصداقية. انتهى من الأسـئلة الشـخصية ثم بدأ يسـألني أسـئلة لا علاقـة لهـا بقضيتـي، كحالتـي الصحية

والاجتماعيـة، وكنت أجيبه بمـا أعرفه. عاد يقرأ الملف مرةً أخرى ثم التفت نحوي بانتباه أكثر، وسألني:

ـ هل تؤمن باللّه؟

ـ وما علاقة هذا بقضيتي؟

بصوتٍ مرتفع:

ـ لأنـه لا يحـاول اغتصـاب فتـاة مسـكينة ثـم يقتلها إلا شخص لا يعرف اللّه ولا رسوله.. هل تؤمن باللّه؟

ـ لا أعرف.

ـ وهل هناك من لا يعرف ما يؤمن به؟

لم أجبه، وظلّ يحدِّق في وجهي، أردف بعدها قائلًا:

ـ هل كنت تحب والدتك؟

ـ وهل يوجد في هذا العالم من يكره أمه؟

ـ يبدو أنك صعب المراس لكني سأجاريك حتى النهاية.

التهم ما تبقى من السـيجارة بشراهة ودهسها في المطفأة وكأنـه يقـول لي: "إن لم تعترف فسأدهسـك هكـذا". نادى السّـجان الواقف فـي الخارج وأمره أن يعيدنـي إلى مكاني، فأمسك بي وغادرنا المكتب.

مضى النهار دون أن يسـأل عني أحد، أخيرًا جاء السجّان ينادي باسمي، وأعطاني قطعة فراش شبه ممزقة لأنام عليها،

ولحافـاً متسـخاً لا أعرف كم من المسـاجين تدثـروا به، ثم أغلـق البـاب خلفه بعنـف. كنت أسـمع تصفيقـاً وصراخاً ثم همهمات، حاولت النوم مذ دخلت السـجن لكني لم أسـتطع. وبقيت أفكـر "لماذا سُجنت؟ ولم أجد سبباً.

الفصل التاسع

جـاء العسـكري ليخبرنـي بقـدوم رجـل وامـرأة لزيارتي. خمّنـت أنه الحاج حمـود وإلى جانبه نادينـكا. تبعته في ممر طويـل ومظلـم وأنـا أتعقـب أقدامـه حتـى لا أصطـدم بعامود أو سـجين، حتـى وصلـت إلى بـاب حديـدي، فُتح وأشـار لي بالدخـول. كانت حجرة طويلة، والضـوء فيها خافتًا. اقتربت من السـياج الحديدي فرأيت نادينكا تلبس الأسـود، وتغطي رأسـها بوشـاح حريـري. بدأ تأثيـر الضوء يخف قليـلًا فرأيت رجلاً إلى جانبها، لم يكن هذا الرجل سوى خالي.

اقتـرب خالـي من السـياج الـذي يفصل بيننا، سـألني عن حالي فأجبته:

ـ ليس على ما يرام.

صاح بي مؤنباً:

ـ السجن للرجال.

ـ للرجال المذنبين وليس للأبرياء.

أردت قول شـيئًا آخر لكني تذّكرت أنني قتلت أحدهم. لوّحت نادينكا بيدها نحوي وكانت عيناها مليئتين بالدموع،

أخبرتني أنها خائفة ولا تستطيع العيش من دوني. شعرت أني أحبها جدًا، ولأول مرة شعرت أني متزوج. مسحت دموعها وسألتني:

ـ هل حقًا حاولت اغتصابها يا أدهم؟

أخبرتها أني لم أفعل، لكنها لم تصدقني. كنت أود إخبارها بكل شيء لكنها ظلّت تبكي ولا أدري هل كان بكاءها لأني في السجن أم لأني خنتها. كان في الغرفة بعض المساجين يتحدثون إلى عائلاتهم، ولفت انتباهي شاب عشريني، كان متشبثًا بالسياج وهو يتحدث إلى أمه التي تتحدث إليه وتبكي، وهو يبكي أيضًا ويحلف أيمانًا مغلظة بأنه لم يرتكب أي جريمة. شعرت بحزن لحاله وكان بودّي مساعدته، لكني في موقفٍ مشابه.

اقترب خالي من السياج واقتربت أنا أكثر. حدثني عما حصل بعد مغادرتي القرية. قال إن الإنسان لا يستطيع استرجاع الزمن حتى يصحح أخطاءه لكن يمكنه تلافيها بقليل من التنازلات والحكمة. سألته عن حسناء الوادي فأخبرني أنهم فحصوها قبل الدفن وأنها عذراء، لكن هذا لا يصرف التهمة عني. قال إنهم قبروا أخي والحسناء وأخاها الذي قتلته في نفس اليوم. وصوّر لي مدى الرهبة التي انتابتهم ذلك اليوم، وأن ذلك غير مسبوق في تاريخ القرية أن تخرج

ثلاث جنائز في نفس اليوم، فلم يحدث مثل هذا إلا قبل خمس وعشرين سنة عندما اختنقت أم وطفلاها بدخان الموقد أثناء نومهم.

انتهى من حكاية الدفن ليحكي لي ما حدث بين عائلة الحسناء وبينه في بيت عاقل القرية.

وقبل أن يشرع في سرد ما دار بينه وبين عائلة الفتاة قال بصوتٍ حزين:

ـ لقد أوصتني أمكم بالوقوف معكم عندما يتعلق الأمر بالمحاكم، وإني أنفذ وصيتها الآن احتراماً لروحها الطيبة.

ثم أردف:

ـ انتهينا من دفن الثلاثة فجمعنا عاقل القرية -أنا والحاج سعيد- في بيته. لو رأيتَ وجه الحاج سعيد عندما جاءنا لرأفت لحاله. كان منكسرًا محطمًا، وكأن البؤس قد أناخ عليه بكلكله. ظللنا نتناقش في الأمر نصل إلى حلّ بعد. تكلّم العاقل في نهاية المطاف قائلًا: "لقد حدث ما حدث يا إخوتي، وكان ذلك عمل شباب طائش، والصلح خير، ولم أجمعكم هنا لأشعل نار العداوة والبغضاء بينكم، وها أنا أضع أمامكم حلًا وسطًا فاقبلوه أو ارفضوه كما تشاؤون:

إن أدهم متهمٌ بمحاولة اغتصاب ابنة الحاج سعيد وقتلها، وهذا عيبٌ أسود في عاداتنا وتقاليدنا، ولن أتدخل فيه ما دام

الأمـر بيد الحكومـة، ولكني سـأحاول الفصل بينكم في أمـر القتيليـن؛ وهما أكرم ومنير. لقد قتـل ماهر أكرم أمام جمهـرة من النـاس، ولو أُحيلـت القضية إلـى المحكمة فلن يخرج منها إلا بحكم الإعدام، ولا نريد أن يحصل ذلك لعائلة الحاج سـعيد، فلـم يعد له فـي الحياة بعد ابنه "منير" سـواه، ودخولـه المحكمـة يعني خروجه الأبدي مـن الحياة. كذلك أدهـم متهم بمحاولة اغتصـاب الفتاة وبعضهـم يتهمه بقتلها، ومتهـم أيضاً بقتـل منير بن الحاج سـعيد، وهاتـان تهمتان لن تخرجـاه من السـجن طوال عمـره. (نظر الحاج سـعيد نحوي) "ولكـن رأيت أن ابنكم قد قتل" (التفت نحوي وقال) "ورأيت أن ابـن اختكم قـد قتل أيضًا، فلم لا تكـون "رأس برأس"، وقضية ابنة الحاج سعيد قد تكفلت بها الحكومة."

سكت العاقل لبرهة ثم نظر نحونا وقال: "ماذا تقولان؟"

فـي البداية اعترضت، لكني عندما رأيت أنك سـتُعدم يا ابـن أختي تنازلت، وقلت إن الحي أبقى من الميت، لأن أختك لم يعد لها في هذه الحياة سواك.

يا لـكلام العُقّال! ظاهـره ينضح بالعقلانيـة والحكمة، وباطنـه محتقـنٌ بالظلم والإجحاف. كنت مندهشًـا لما قاله؛ كيـف لأحدهـم أن يسـامح فـي دم لـم يخـرج مـن جسـده، وكيـف لـه المقاصصة في روحٍ لم تُكـن روحه. إني معترض

علـى الأحكام التي تعطي الحق لشـخص بالتنازل عن حقوق شـخص آخر، حتى وإن كان أقرب الناس إليه. ماذا لو عادت روحـه إليه، هل كان سيسـامح من أخذ منـه الحياة؟ يظنون أنهم بتنازلاتهم هذه يحققون العدالة لينعم المجتمع بالسـلام، ولكنهـم في الحقيقـة لا يحققون إلا الظلم بحد ذاته، إنهم لا يعون أن التمادي في مسامحة الآخرين هو ظلمٌ لا يُغتفر.

أخبرنـي أنه نصّـب لي محاميًا بارعًا نجـح في الكثير من القضايـا الجسـيمة. هـززت رأسـي دون أن أجيـب. بقي خالي لدقائـق يعطينـي بعـض النصائـح، كنـت أهـز رأسـي فقط عندما ينتظر مني الرد، وعندما انتهى وقت الزيارة. لوحت لي نادينكا بيدها ثم غابت.

كان فـي الغرفـة رجـل خمسـيني. أزعجني صراخـه وأنا أتحـدث إلـى خالي وهـو يصرخ في وجه شـاب خلف السـياج. يتحـدث إليه بعصبيـة، ويعنفه لماذا لم يحضر لـه علبتين من السـجائر، فالعلبـة لن تكفيـه، فرد عليه الشـاب أنه لم يعد لديهـم ثمن نصف كيس مـن القمح، فأجابـه أن يذهبوا إلى الجحيم، المهم أن يحضروا له ما يطلبه.

غادرت الغرفة على صراخ وشتائم الرجل الخمسيني لابنه، وعاد بي العسكري إلى زنزانتي.

الفصل العاشر

تعرّفت على كبير السجانين ظهر ذلك اليوم، كان رجلًا لطيفًا، ويلبس ملابس واسعة رغم نحافته. أخبرني أن المحامي سيأتي بعد قليل وسألتقيه في حجرة خاصة. ظلّ يحدثني أنه مغرمٌ بالقائد الشيوعي ستالين وصديقه لينين، ويحب أن أحدثه عنهم. وأنا لم أكن أعرف عنهم كثيرًا. اتخذتها فرصة لخلق صداقة معه فقد يفيدني في أمر ما، فحدثته عن نظام روسيا الشيوعي حينها وعن ستالين ولينين وتأسيسهما لحزب البلاشفة ومعارضتهما لحكومة القياصرة، ومغامرات ستالين في إنقاذ صديقه لينين. وصل المحامي، فأُخذتُ إلى حجرة الاستجواب، كان الضوء فيها باهتًا، تحتوي على مكتب صغير إلى جانبيه كرسيان تفصل بينهما منضدة، عليها. أشار المحامي إلى الكرسي الأيمن فجلست، وجلس أمامي.

كان رجلًا في منتصف العقد الثالث، متوسط الطول، يلبس بذلة رسمية دون ربطة عنق. وبين الفينة والأخرى يُصلح من وضعية ساعته وكأنه يتفاخر بها. أخبرني أن اسمه مروان، ثم شرع يتباهى بنفسه، فقال إنه درس المحاماة

في روسيا قبل عشر سنوات، وحديث كثير لا يطاق. قال إنه سيخرجني من هذه القضية السهلة مقارنة بالقضايا التي ترافع بها من قبل. أشعرني بالتشاؤم تكراره عبارة "إن شاء الله" بعد كل جملة يقولها. أخبرني أنه زار نادينكا، وبصوتٍ خفيض نوّه بأنها أخبرته ببعض المعلومات التي من الممكن أن توصلنا إلى حل في قضيتي. لم أستسغ حديثه لولا أن خالي قد وكّله للترافع؛ كيف له التحدث مع زوجتي في قضية تخصني!! لمَ يجعل الآخرون هم من يحددوا مصيري في هذه القضية؟ رفضت التحدث إليه، لكنه أقنعني أنه يفعل ذلك لمصلحتي.

حدّق في عيني، ثم سألني:

ـ لقد اطلعت على ملف القضية، وهناك شاهد يقول إنه رآك وأنت تقبّل الفتاة بعد أن فارقت الحياة، وهذا أمام المحكمة يُعدُّ دليلاً قوياً بأنك حاولت اغتصابها قبل موتها.

تمنيت لو أنه ينهي الزيارة، لذا قلت ممسكًا أعصابي:

ـ دعك من كل هذا وأخبرني بماذا يمكن أن تفيدني في هذه القضية اللعينة؟

ـ لم أتوصل إلى أي حل يمكن أن يفيدنا حاليًا، لكن سأحاول التواصل بعائلة الفتاة وأنظر في الأمر.

قال ذلك على عجل، ثم استأذنني وغادر المكان.

مللـت من انتظار المحكمة لتفصـل في قضيتي، كيفما كانت النتائج. لم يأتِ إليَّ المحامي سوى ثلاث مرات كانت سـريعة. في آخر مرةٍ قال إنه قد أخذ مني كل ما يحتاجه من معلومات، وسيتواصل بعد ذلك بخالي. كان معظم المساجين فـي حركة دائمة، يهذرون فـي أمور مختلفة، أما أنا فكنت أفضّل الجلوس في سـريري أحدّق مرةً في السقف وأخرى في المسـاجين وحركاتهم الغريبة. لا أنكر أني كنت أستأنس بهـم أحيانًـا، وخصوصًـا عندمـا يبـدأ أحدهـم بسـرد قصته فيسـتمعون إليه حينًا، وحينًا يلعنون أو يضحكون ويتوَّعدون بالنيل من أسـماء تسـببت في تعاسـتهم. أحدهـم أخذ متكأ فجلس ليحكي:

ـ كنـت فـي نعمـة ونعيـم، وكان لدينـا مـزارع وأراضٍ كثيـرة. كان عمري حينها سـبع عشـرة سـنة، وكنت أتوق للانضمـام لجيـش الإمـام، لكـن أبي أصـر ألا أذهـب وقرر تزويجـي. حاولـت إقناعـه أني ما زالـت صغيرًا، فأبـى إلا أن يربطني بالفتاة التي سـأتزوجها وأظلّ أعمل في مزارعنا كي لا أفكـر فـي الذهاب إلى أي مكانٍ آخـر. تزوجت وقلت في نفسـي: "الحمـد لله أنـي لم أنضـمّ للجيش" فقـد كنت أحب زوجتي جدًا، وعشـنا في سـلام عاماً كامـلاً. حملت زوجتي ونفّست بثمرة رمان غير ناضجة. كان لدينا الكثير من شجر

التفـاح وأبي لا يحب أن يقطفها قبل أن تنضج، أو أن أسـتأذن منه. لم أستأذن، ففي كل مرة أحاول الاستئذان منه يمطرني بنصائـح وأوامر لا حصر لها، لذا حاولت أن أقطف ثمرة تفاح دون علم والدي ولكنه علم. تدخّل أحد المستمعين:

ـ وأبوك هذا بالغ في الحزم، ثمرة تفاح من بسـتان فسـيح ما الذي سينقصه؟

ردد الجميع:

ـ صحيح .. صحيح

نظر المتكلم نحونا غاضبًا، ثم قال:

ـ أنتم لا تعرفون أبي لهذا تقولون هكذا. كسر قدم أخي الآخر فقط لأنه همّ بقطف ثمرة عنب قبل أن يحين قطافها.

راقت لي قصته، فقلت باهتمام:

ـ وبعد ذلك، ماذا حصل؟

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أكمل:

ـ جـاء ليلتهـا تلـك إلـى مخدعـي أنـا وزوجتـي، وهزأني أمامها، مدّعيًا أني لو اسـتأذنت منـه لما رفض لي طلب. وفي ذروة انفعاله حاول أن يصفعني، لكني دون شـعور أمسكت بيـده. عندما أمسـكت بيده ظن أني أتحداه فاشـتعلت نيران غضبـه، ثم أمسـك بتلابيبـي وصفعني على خـدي وهو يردد:

"أتتحداني يا كلب؟" لم أرد عليه بل شعرت بالندم حينها وأخبرته أني لم أقصد التحدي أبدًا ، وطلبت منه المسامحة لكنه لم يسامحني، قال إنني بعد أن تزوجت بدأت أرى نفسي رجلًا ، وأن زوجتي تعلّمني مخالفة أوامره، لذا لم أعد أطيعه. أمرني بمغادرة بيتنا؛ بحجة أنه لا مكان لي فيه. حاول إخوتي مراجعته ليعود عن قراره لكنه أبى. هل أستحق الطرد؟

أجاب الجميع بطرائق مختلفة: لا. ثم سأل آخر:

ـ وهل هذا سبب دخولك السجن؟

ـ لا طبعًا ، سبب دخولي السجن أنه في تلك الليلة وأنا أجمع أشيائي أنا وزوجتي، وبين توتر الموقف، نشب خلاف بيني أنا وأخي الأصغر ولم أدر بنفسي إلا وقد قتلته. وهكذا وصلت إلى هذا السجن.

كنت مندمجًا مع ما يحكيه الرجل، لكن ما فاجأني وقطع حديث الجميع هو مجيء شرطيان إلى الزنزانة التي كنت فيها فقيدّاني، واقتاداني إلى سيارة السجن التي أوصلتنا إلى المحكمة. كانت السيارة مغطاة من كل الجوانب، ولا أرى سوى بصيص ضوء يعبر عبر فتحات من الجوانب. وقفت السيارة فأنزلاني، وبين جلبة الناس ومحاولة بعض الصحفيين الحديث إلينا نقلاني نحو صالة قريبة من قفص اتهام المحكمة حيث ظللت أنتظر دخول هيئة

المحكمة قاعدًا ، بينما ظلّ الشرطيان واقفين ممسكين بسلاحيهما يتحدثان ويدخنان السجائر.

هذه المرة الثالثة التي آتي فيها إلى قاعة المحكمة ، ولنقص الأدلة تم تأجيل القضية ، وأتمنى أن تكون الأخيرة.

رُفع ستار القفص ، فحلّ الشرطيان قيدي وأشارا لي أن أدخل قفص الاتهام الحديدي ثم أغلقا الباب عليّ. دخل الحضور قبل القاضي ومستشاريه كالعادة ، فشكّلوا ضجّة لا بأس بها ، ظللت أتنقّل ببصري بين الحضور لعلي أجد نادينكا أو أحداً من أقربائي ، ولم أتبين تواجدهم إلا بعد أن لوّحت لي نادينكا بيدها حيث كانت بمعية خالي يجلسان في الطرف الأيسر لقاعة المحكمة ويبدو أنهما متوتران ومنزعجان من نظرات الآخرين العدائية نحوهما. في الطرف الآخر كان يجلس الحاج سعيد ومعه زمرة من الناس ، حاولت أن أبدو هادئًا لكن نظرات الحضور المزدرية كانت توترني ، وبعضهم كان ينظر إليّ ويبصق على الأرض.

وأنا أراقب حركة الناس في القاعة إذ بالمحامي يدخل نحوي فسلّم عليّ من خلال إيماءة من وجهه ولم أرد السلام عليه كما فعل ، اقترب مني وقال:

ـ عائلة القتيلة جلبت شاهدين ، بهذا تصبح القضية شبه محسومة ، لكني سأحاول أن أخرجك منها بأقل قدر ممكن

من الخسائر.

ـ مستحيل.. لم يلمحني سوى رجل واحد، ويبدو أنه كان معتوهًا.

ـ لننتظر ونرى ماذا سيقولان، وأنا بدوري إذا رأيت تناقضاً في ما يقولانه فسأطعن في شهادتهما وأطلب استئناف الحكم.

ظللت غارقًا في التفكير؛ ماذا سيقول الشاهدان؟ هل حقًا رأياني؟ فليكن، فأنا لم أقتلها.

كان المحامي مروان ما زال بجانبي يتفقد أوراقه. وضع الأوراق في حقيبته اليدوية ثم اقترب مني وقال بلهجة تسترعي الاهتمام:

ـ حاول أيضًا أن ترد على أسئلة المحكمة باقتضاب، كما اتفقنا سابقًا.

قال تلك الجملة ثم اتجه نحو المكان المخصص له بينما أنا ظللت غارقًا في التفكير بأمر الشاهدين، حتى دخلت هيئة المحكمة ومع دخولهم وقف الجميع، وظلّوا واقفين حتى جلست الهيئة كاملة ثم جلسوا.

الجميع يستمعون إلى القاضي والمحامين بانتباه تام، استدعى القاضي في البداية محامي عائلة الحسناء، فقام من مقعده وأصلح من بزته الرسمية ثم وجّه حديثه نحو القضاة

قائلا:

ـ حضرات القضاة، الحضور جميعًا. إن مجتمعنا، كما تعلمون، يغفر أي جريمة عدا ما يتعلق بالعرض، وإن هذا المجرم الذي ترونه أمامكم قد حاول انتهاك عرض موكلي بمحاولته اغتصاب ابنته وهي تورد من ماء سدّ قريتنا، وبعد أن داهمها المجرم فجأة ورأت ألّا ملجأ لها منه سوى أن ترمي بنفسها في السدّ فعلت ذلك حفاظًا على كرامة عائلتها المعروفة بالعفة والشرف، ولم ينته المجرم عند هذا الحد، بل قادته شهوته المشتعلة إلى اللحاق بها بعد أن رمت بنفسها، محاولًا الاستمتاع بها رغم أنها أصبحت ميتة، وعندما كشفه الشاهدان ـ اللذان ستسمعان شهادتهما بعد قليل ـ حاول إخراجها ليثبت لأهل القرية أنه كان يحاول إنقاذها فقط. هل سمعتم برجل يقبّل فتاة ليست بزوجته من فمها بعد أن ماتت؟ لا يعمل هذا العمل إلا قاتل ومغتصب، وها هما الشاهدان سيقولا ما شاهداه.

كنت ألعنه في نفسي، حاولت المداخلة لأتكلم لكن المحامي كان يشير إليّ أن أهدأ، ناهيك أن القاضي كان يفعل ذلك أيضًا. خرج الشاهدان وقال أحدهما إنه رآني عندما كان يتفقد المدرجات الزراعية من الجبل المطل على الوادي حيث رآني أمام الحسناء وهي ممسكة بالسطل تحاول أن

تنفكّ مني بعد أن أمسـكتها من كتفيها محاولًا احتضانها، قال إنه ظنّ في البداية أنني كنت أخاها وأساعدها في حمل السـطل، لكن ما أذهلـه هو عندما رأى الحسـناء فجأة وقد رمـت بنفسـها فـي السـدّ، بينما رآنـي واقفًا لـم أتحرك حتى ماتـت. تقدم الشـاهد الآخر وقال إنـه كان أقرب للحادثة من الآخر، حيث رآني وأنا أقبّل الفتاة نفسها وهي ميتة.

رفعت يدي مرةً أخرى للقاضي لأخبره أن الأول كاذب وأما الآخـر فصـادق، لكن المحامي أشـار مرةً أخـرى أن أهدأ، والقاضـي لـم يكـن يهتم لـي حينها. تقـدم المحامـي مروان محـاولًا إثبـات أني لم أقم بذلك عـن قصد، وحدث كل ذلك بالخطأ. لعنت المحامي مروان أيضًا، كيف له قول ذلك؟

التفـت القاضـي نحوي ثم طلـب مني إن كان لـديّ أقوال أخـرى، فأخبرتهـم بالحقيقة لكن يبـدو أن حديثي لم يكن مقنعًا.

أصدرت المحكمة الجنائية حكمًا بالسجن عشرين عامًا بتهمتي محاولة الاغتصاب والتسـبب فـي القتل. هلل الحضور وكبّـروا وكانت نظراتهم مليئة بالفـرح للحكم الذي صدر بشـأني. وكنت أسمع آخرين يقولون: "يستحق الإعدام وليس السجن فقط".

الفصل الحادي عشر

تـم الفصـل في قضيتي واقتيـادي ذلك اليوم إلى السـجن.. انتابنـي شـعورٌ غريـب جـدًا تجـاه الحيـاة والناس مـن حولي؛ شـعرت بالظلـم، بالوحـدة، بالخـوف، وبـكل ما هو سـيء وقبيـح. لـم أوقن أني حقًا في السـجن إلا بعد أن سـمعت قرار المحكمـة، ورأيـت خالـي ونادينكا والمحامـي مروان وهم عائـدون وقد خلّفوني بين هذه الجـدران الصماء. فور وصولي زنزانتي جلسـت على سـريري تائهًا أبحث عن نفسـي. سألني مـن كان معي في الغرفة عن الحكم فلـم أرد على أي واحدٍ منهم، وظللت أفكّر فقط في الأمر بجدية أكثر من ذي قبل.

اقترب مني عجوزٌ في الستين تقريبًا، يسميه بعض السجناء بالكبيـر، حيث يعتبر من أقدم السـجناء فـي زنزانتنا، فقد دخلهـا وهو في العشـرين مـن عمره، ولا أعرف سـبب دخوله غير أنه قال يومًا إن الثأر هو من أوصله إلى هنا. أمسك بجنبي كأبٍ يتودد لابنه ثم قال:

ـ أعـرف شـعورك ومـدى حزنـك، لـكن ماذا عسـاك أن تفعل حيال حكم المحكمة؟

لم أرد عليه، وظللت ساكتًا فعاد يتحدث:

ـ خذها نصيحة من مجرب؛ إذا أردت أن تعيش في هذا السجن فتصرف وكأنك لست بداخله.

كنت أعرف أني لو تفوّهت بكلمة واحدة فسيطول الحديث وسيتدخل البقية، كلٌ يعرض خبراته التي اكتسبها لكثرة مكوثه في السجن، لذا بقيت مصرًا على السكوت حتى انتهى الكبير من سرد فلسفاته.

لم أدرك أن الليل قد حل إلا عندما سمعت صوت أذان المغرب من أحد الجوامع القريبة حيث كان الصوت يصل إليّ باهتاً. كنت حينها غارقًا بالتفكير في ما آلت إليه الأمور: "كيف وصلت إلى هذا السجن اللعين، ومن هم هؤلاء الناس الذين أنام معهم في نفس الزنزانة، لم أنا هنا وإلى متى سأظل؟"، ظلّت أسئلة لا حصر لها تحوم في عقلي طيلة الليل ولكن دون الوصول إلى إجابات.

لكثرة الأفكار المتشابكة والسوداوية في عقلي لم أنم تلك الليلة حتى تسلل صوت المؤذن لصلاة الفجر إلى أذني بلحنه الجميل "الله أكبر، الله أكبر". لا أنكر أنني كنت ألعن المؤذن في كل مرةٍ يوقظني مكبر صوت المسجد في الفجر، لكن عندما سمعته هذه المرة شعرت برغبة قوية للصلاة. خالجني حديثٌ مع نفسي، فكنت أعاتبها: "لم لا

أقوم فأصلي لعل الله يجد لي مخرجًا؟" شعرت أني وحيد رغم ازدحام الغرفة بالمساجين، وبدأت أبحث عن أي شيءٍ يمنحني القوة وبعض الطمأنينة، ولم أجد فكرة جميلة سوى الصلاة إلى رب قد يسمع نجواي فيخرجني مما أنا فيه. لم أكترث حينها لكل تلك الأسئلة التي تحوم في عقلي، ولا يهمني أن أعرف عنه كثيرًا ما دام سيمنحني الطمأنينة والراحة، وهل هناك أجمل من الراحة النفسية في هذه الحياة؟

عرفت يومها مدى ضرورة وجود الإله في هذه الحياة؛ إنه يمنحهم القوة، الطمأنينة والراحة، وفوق كل هذا يشعرهم بمعنى الحياة، وهذا ما يحتاج إليه البشر في هذه الحياة المجهولة.

تساءلت: "ماذا لو أن هذه الحياة بلا إله، كيف ستكون؟" ظللت أفكر، وفي نهاية المطاف، وصلت إلى أن الحياة بلا إله عبث لا يمكن تصوره، ربما يقود ذلك إلى فوضى عارمة لا يمكن احتواؤها، لذا لا أريد أن ينقرض مفهوم الإله، بل أريده أن يكون حاضرًا بقوة لتوازن الحياة.

انتهى صوت المؤذن، "لا إله إلا الله" أطال لحنها أكثر من غيرها لتظهر للمستمع أكثر روحانية، رددتها معه برضى وقمت من سريري على نية الصلاة. كان لا بُدّ أن أجد ماءً لأتوضأ ولكن ككثير من الأوقات لا يوجد ماء، ولا بد

أن تستدعي أحد العسكر الطوافين في الأروقة وتخبرهم بمشكلتك، حينها قد يعدك أنه سيحلها ثم لا يقوم بأي شيء، وقد يكون مزاجه سيئًا فيكيل لك الشتائم ثم يأمرك بالبقاء في مكانك هادئًا، لذا بعد القليل من التفكير تنازلت عن قراري ولم أكلّف نفسي كل ذلك العناء، وللأسف لم أحصل أيضًا على الطمأنينة التي كنت أصبو إليها.

ها أنا بعد أسابيع من التيه، ككل السجناء الذين كادوا يُجنّوا في البداية من كثرة التفكير، يمكنني القول إني عدت إلى حياتي الطبيعية بالنسبة لسجين محكوم عليه بالسجن لعشرين عاماً. بدأت أتفقد زنزانتي وأصلح من فراشي وأغراضي الشخصية، وما إن كنت سأحتاج إلى شفرات حلاقة أو مرطب جلد وملابس ثقيلة لأيام البرد القارسة. أعرف أن تفكيري تغيّر تمامًا، وخططي تغيّرت أيضًا، أو لنقل إنها اختفت، لكن لا يهم كل ذلك ما دمت حيًا، فالحياة كفيلة بمنحي الأمل لعمل شيء ما، وماذا غير الأمل يمكنه أن يجعلنا على قيد الحياة؛ إنه علاجٌ سحري لكل المعضلات، أفيون التائهين وخمرة البائسين. إننا في الحقيقة لا نبقى على قيد الحياة من أجل الحياة نفسها، بل من أجل آمالنا التي ما زلنا ننتظر اليوم التي سنحققها فيها.

الفصل الثاني عشر

عشر سنوات مضت من محكوميتي، وفي الحقيقة لم أعد أهتم للأيام أو السنين، فقد تعوّت على كل شيءٍ هنا. أذكر قبل إصدار الحكم أن نادينكا كانت تزورني كل خمسة أيام، أما بعد الحكم فبدأت تخفّف زياراتها حيث أصبحت تأتيني كل شهر، ثم بعد غياب طال أشهر وصلتني رسالة منها أعطاها لي أحد الحرّاس، تقول فيها إنها ملّت الحياة لوحدها، وأن بعضهم بدأ يزعجها كونها امرأة جميلة لرجل محكوم عليه بالسجن لعشرين سنة، ولمّحت في رسالتها بأنها نادمةٌ لأنها تزوجت بي، حيث قالت إن أسوأ قرار اتخذته في حياتها هو السفر معي إلى هذه البلاد، في آخر الرسالة أخبرتني أنها قدّمت طلبًا إلى المحكمة بالطلاق، فهي لا تريد أن تكون زوجةً لرجلٍ مغتصب وقاتل.

لا أعرف لم كلّفت نفسها كل هذا العناء، ولو أنها طلبت مني أن أطلقها لفعلت. أنا أعرف نادينكا جيدًا، لا تفعل هذه الأشياء من تلقاء نفسها، وأجزم أن هناك شخصاً يدبر لها هذه الأمور، وكان لديَّ فضول لمعرفة ذلك الشخص؛ أهو زوجها الذي لم تعلن عنه بعد أم عشيقها أم شيخ القرية؟ لم يكن

الأمـر يؤرقنـي كثيرًا لكـن الفضول لمعرفة ذلك الشـخص كان يتملكني؛ فقد أخرج من هذا السجن ولديَّ ما أفعله.

ازدادت علاقتـي بكبيـر السـجانين، فـكان يسـمح لي أحيانًا بالجلوس معه لتدخين السـجائر والاسـتماع إلى أغاني أم كلثوم من الراديو الخشـبي الذي كان في مكتبه مقابل أن أحكي له عن أبطال الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، ولم أقصّر معـه في الحقيقة، فقد كنت أعرف بعضهم، كليون تروتكسـي، ميخائيـل سوسـلوف، وديميتـري أوسـتينوف، وكنـت أبالغ فـي بعض الأحداث إرضـاءً لمزاجه. كان يقول لـي دائمًـا إن الاشـتراكية هي الحـل الوحيد للـدول الفقيرة كاليمن.

ذلك اليوم كان مزاجه رائقًا، حيث ظللنا نتحدث لساعتين تقريبًـا. قـال إنه كان مهتمًـا بقضيتي حيـث تابعها عن قرب حتى النهاية. أعطاني سيجارة وكبريتاً، ثم قال:

ـ مـاذا يعني لـك أن المحامي الذي وكّلتـه ليخلصك من السجن هو من تزوج بزوجتك؟

ـ يعني أنني سأخرج ولديَّ ما أنشغل به.

ابتسـم ابتسـامة تنـم عـن حكمـةٍ خفيـة، ثـم أخبرني أن المحامـي الـذي وكّلتـه هـو السـببُ فـي سـجني كل هـذه السـنين، وكان بإمكان الحكم أن يكون أقل من عشرين

عامًـا. سـألته عـن السـبب، فأخبرنـي أن المحامـي أعجـب بنادينـكا، ورغـم أنه متـزوج إلا أنه خدعهـا بمظهره وغروره بنفسـه، وبعد صـدور الحكـم أخبرها أن انتظـار رجل قاتل كل هذه السنين هو الجنون ذاته، فقَبلَت الزواج منه، ولَكن كان عليها أن تقطع علاقتها معي أولًا.

لـم أهتم لأمر قضيتي بقـدر اهتمامي بأمر تعدد الزوجات؛ كيف يسـمح القانون للرجـال أن يتزوجوا بأكثر من واحدة؛ هكـذا تصبح الزوجة سـلعة رخيصة أو حيوانـاً أليفاً يمكن لأي شـخص اقتناء أكثر من واحد متى ما يريد، وفي السـن الـذي يريـد. ثم مـاذا لو أن المـرأة تزوجت بأكثـر من رجل، كيف سـتكون القضية حينها؟ لم لا ينفع تعدد الرجال أيضًا أم أنهم حيوانات غير أليفة؟ السـؤال الذي أتسـاءله دائمًا: "لمَ تصبـح القوانيـن ممكنـة عندما تكـون في صالـح الرجل، لكنها مسـتحيلة عندما تصل إلى المرأة؟". هذا سـؤال ضمن آلاف الأسئلة التي لم أجد لها أجوبة، وأظنني لن أجد.

إننـي لا أدعو بتسـاؤلي هـذا لأن تتزوج المـرأة بأكثر من رجـل رغـم أنه ليس مسـتحيلاً، وقـد يصبح أمـرًا طبيعيًا في المسـتقبل، لكن ما أدعو إليه هو أن تصبح المرأة كالرجل في الحقوق والواجبات لا أكثر ولا أقل.

الفصل الثالث عشر

قبـل خروجـي من السـجن بأسـابيع تباطـأت الأيـام مثلما كانـت فـي البداية، بـل وأكثر؛ الأيـام لا تنطـوي، والليالي مع السـهاد تبعث على التفكير، وبدأت الأحداث تتزاحم في عقلي، والأسـماء تتقافز في ذاكرتي، أريد أن أخرج لأواجه الواقـع بـكل مـا يحمله من حقائـق، لكـن كان يجب عليَّ الانتظـار، والانتظـار جمرة من نـار، والجرح الـذي لا يندمل ولا يتـرك صاحبه يهدأ من الألم، والذكريات المؤلمة تتجدد عندما لا نجد ما ننشـغل عنها بأشـياء أخـرى، وبماذا يمكن للسـجين أن ينشـغل في السـجن سـوى بذكرياتـه المؤلمة، وأحلامه المحطمة.

أما في الأيام الأولى من دخولي السجن فأذكر أني كنت أفكر بماذا سأفعله بعد خروجي، كانت لديَّ أحلام كثيرة أردت تحقيقها لكنها تلاشـت مع مكوثي في السـجن، ولم أعـد أفكـر سـوى بالنجـاة، بأيام الصيـف الطويلـة، بليالي الشتاء الباردة، بتلك الأبواب الموصدة، بتكشيرة السجّانين وبوجـوه المسـاجين البائسـة: "كيـف يحتملـون النظـر إلـى وجوههـم كل يوم مـن خلال المرايا؟" وهـل يكترثون للنظر

في المرآة أصلًا؟ وهل هناك مرايا ليرون أنفسهم من خلالها؟

لا أريد أن أحكي عن حياتي في السجن أكثر؛ لأني لا أريد تذكّر ذلك. السجن سيءٌ جدًا؛ يخلق من الطيبين حقودين، ويجعلك تستوعب أشياء لم تستطع استيعابها من قبل. السجن يحتوي المجرمين ليصنع منهم مجرمين أكثر حقدًا وكراهية، هذا إن كانوا مجرمين حقيقيين، أما إن كانوا أبرياء فهو يهيئهم ليصبحوا مجرمين، ونحن لم نأتِ إلى هذا العالم إلا لنكون مذنبين، لذا ليس هناك من هو بريء حتى يمكنه الحكم على أحدهم بأنه مذنب يجب معاقبته، فجميعنا بطريقةٍ أو بأخرى ارتكبنا جرائم معينة، كما ليس هناك فرقٌ بينَ أولئك الذين هم في السجن وبين من هم خارجه سوى أن الذين أودعوا في السجن لم يجدوا من يبرر لهم جرائمهم التي ارتكبوها.

قبل البارحة انتهت محكوميتي، ودّعت أصدقائي المساجين، وكنت حزينًا لفراقهم، فكنت قد ألِفتُ الحياة معهم، ولولا أن لديَّ أشياء تنتظرني في الخارج لاخترت المكوث برفقتهم. إن في الإنسان خاصية التأقلم مع أي شيء في هذه الحياة، حتى لو وُضع في غرفة مظلمة ليس بها شيء لاعتاد عليها ولربما أحبّها، وهذه الخاصية برأيي ما يمكِّنه من العيش في هذه الحياة.

ودّعت سـريري الـذي احتواني كل تلك السـنين، جمعت ملابسـي وفراشـي وبعـض أشـيائي التـي لـم أسـتخدمها ثم أهديتها لمن عشت معهم داخل السجن. لقد كانت مشاعرهم متناقضـة؛ مـا بيـن حزيـن علـى فراقـي وبيـن سـعيد لانتهاء محكوميتـي. لا ألومهم على ذلك، فإني أشـعر بما يشـعرونه الآن، فقـد ودّعـت عزيزًا عليّ قبل سـنتين وكنت أبكي ولا أدري سبب ذلك البكاء.

هنأني كل من رآني وكنت أبتسـم للجميع دون وعيٍ مني بمـا يقولونه، غادرت زنزانتي حيث رافقني كبير السـجّانين حتى الباب، عانقني بحرارة ثم تركني ملوحًا بيده ليودعني، مشـيت بضع عشرة خطوة ثم نظرت خلفي حيث كان كبير السجانين ما زال يودعني بنظراته.

بدأت أترنح في الشـوارع هائمًا أبحث عن سـيّارة توصلني إلـى قريتـي. تذكّـرت مـدى غرابتي فـي أول يـوم دخلت فيه السـجن، وها أنـا أخرج إلى هذا العالـم لأجدني أكثر غرابة من قبل.

أتفقد يديَّ وقدميَّ النحيلتين، وملابسي غير اللائقة عليّ، وأنا أقول في أعماق نفسـي؛ ها أنا أتنفس الحرية من جديد، ولكـن ما الفائدة وألف قيدٍ يسـتوطنني، ما فائدة أن أكون طيـرًا نُقِل من القفـص الصغير إلى القفص الأكثر اتسـاعاً؛

أليس الاثنان في النهاية سجن له حدود وقيود؟

أنظر حولي، في الجو غبار خانق، الشمس ملتهبة، الشوارع مكتظة بالمارّة، صخبٌ يضج بالأسواق يشعرني بكل ما هو متناقض؛ بالحياة والموت، السعادة والتعاسة، القلق والراحة، باللامتناهين. أجول بعيني في الأسواق وهي ممتلئة بالباعة وبالسيارات المحملة بالأعلاف والبهائم والناس، الجميع يتسابق للوصول أسرع، ومن أجل ذلك الهدف قد تجد جماعات تتشاجر لأن أحدهم أوقف سيارته ولم يفسح للآخر الطريق للعبور، وقد ينجم عن ذلك الشجار قتلى وجرحى ثم تُحال القضية إلى المحاكم، بعد ذلك سنوات طوال يصرف المتشاجرون أموالًا طائلة للمحامين والمرتشين، وكل ذلك في سبيل أن يصلوا أسرع.

يا لغرابة هذا العالم.. كل شيء تغير فيه عدا وجوه الناس الكالحة وقلوبهم، وحتمًا طريق قريتي الوعرة وملابس النساء؛ لقد تغيّرت البيوت، نوع الأسلحة التي يحملها الناس، موديلات السيّارات، والكثير. ركبت في صندوق سيارة تويوتا كانت مزدحمة بركّاب بعضهم يحمل صرّته الممتلئة بحاجيات أهله، وبعضهم الآخر يحمل معدّات زراعية، وآخرون يحملون القات، كانت السيارة متجهة نحو قريتي، حاولت التعرف على من حولي لكني لم أتعرف على أي أحد

منهم، الجميع قد تغيّر، فالذي كان طفلًا أصبح شابًا يافعًا، ومن كان شابًا أصبح رجلًا ذا لحية وشارب، ومن كان رجلًا فقد أصبح عجوزًا أو أنه قد مات.

تركـت الجميع في غمرتهـم وظللت أفكّر "ماذا لو رأيت نادينـكا بعـد كل هذا العمر، كيف سـيكون شـكلها، هـل ما زالـت تتمتع بنظارتهـا وحيويتها أم قد ظهر لها شـارب صغيـر كحـال بعـض العجائز؟ هل مـا زال ماهر حـرًا طليقًا يرفـل بالنعم؟ هل تزوج المحامـي بثالثة أم اكتفى بنادينكا؟ أين قبروا الحسناء وأخي، وهل نبتت زهور على قبورهم؟ كل تلك الأسئلة كانت تستوطن عقلي وأتلهف لمعرفة أجوبتها.

وصلت قريتي ونظرات مليئة بالحقد والكراهية ترمقني، أيـن أولئـك النـاس الآن؟ هل يعرفـون أني حر طليـق اليوم؟ لا أظـن ذلـك، ولكني موقـن أنهم كانـوا يترقبـون خروجي، ويتوجسـون خيفة من ردة فعلي، هكذا يخيّل إليّ حالهم. لقد قلتها في البداية وها أنا أقولها اليوم؛ لن أخرج من هذه الحياة مظلوماً، حتى وإن وقفت الملائكة والشياطين كلها ضدي. لقد علّمني السـجن أن العيش أو الموت من أجل الانتقام شيءٌ جميلٌ، خصوصًا عندما يكون من أجل شيء يستحق ذلك.

كانت خيوط الشمس مُرسلةً في الأرجاء، لم أرد أن أدخل بيتـي نهـارًا، فالليل صديـق الغرباء، حبيـب للتائهين، مؤنس

للوحيديـن؛ فـي الليل يمكنـك أن تقوم بكل مـا هو مخجل؛ يمكنـك أن تبكـي حتـى تخمد نيـران قلبـك، فللبكاء في الليـل إحسـاس آخر، يشـعرك بأنـه أمٌ رؤوم تغطيـك بعباءتها الواسـعة حتـى لا يـراك أحـد، وهـل أنسـى عبـاءة أمـي التي كنـت أختبئ فيها عندما كان يحـاول أحدهم إحراجي بأنه سـيزوجني ابنته؟ في الليل يمكنـك أن تتعرى من قوتك، من كبريائك وحتى من ملابسـك دون أي خجل، وفي الحقيقة لا أريـد أن يـرى أهل القرية ملامح وجهي التعيس، فقد أتسـبب في حدوث جلبة وأنا لا أحبذ ذلك.

ظللـت أتجول في الأرجاء حيث مـا زال أهاليها يعملون في مدرجاتهـم الزراعية المتوزعة على جنبات القرية إلاّ من بعض النسـاء العائدات يحملن حزمًا من الأعلاف، وأخريات يحملن أوعيـة المـاء على رؤوسـهن، وعجائز يلاعبـن الأطفال الذين خلّفتهـم العائلة. كنت خائفًا لو عرفني أحدهم لكن لم يفعل أحـد، فالجميـع هنا لديه من المشـاغل ما يكفيـه ليتجاهل الكثير من حوله، ناهيك أن الزمن قد غير من شكلي أيضًا كما غير من أشكال الكثير.

اتجهـت في بـادئ الأمر إلى الـوادي، كنـت خائفًا جدًا، خائـفٌ مـن هذا العالم الذي أشـعر أني لا أنتمـي إليه، خائفٌ مـن المجهول، من تلك الأشـياء التي يقولـون عنها أقدار، من

وجـوه الغريـاء وأنين الجائعين وآهـات المظلومين، خائفٌ من الماضي ومن المستقبل، من أن أجد جثة الحسناء وأخي حول السـدّ، فملامحهما لا تزال معلقة في جدار ذاكرتي بمسمارٍ صلـبٍ لا يمكـن انتزاعه. صوت الحسـناء الرخيم ما زال يرنّ في مسـامعي، أسـمع سـعالها من خلف اللثام الأسـود وكأن كل شـيء يحـدث الآن أمامـي. ما زلت أشـعر بيـد أخي وهو يحاول التشـبث بساعدي وكأنه يقول لي " لمَ أُقتل بدلًا عنك يـا أخي؟". مشـاعر متداخلة كانت تتدفق مـن حنايا الماضي تبتزنـي إليهـا كما يبتـزّ الموت غُرماءه، والأسـد فرائسـه، والأقدار أحلام المساكين.

مـا إن وصلـت الوادي حتى اسـتبدّ بي إحسـاس بأن المطر سـيهطل بغزارة، والحسـناء سـتأتي بمعية الدلو وقطراتٌ من الماء تتسـاقط علـى صدرها المضطـرب، وسـأتحدث إليها وأكمل لها قصتي، ليس عن روسـيا هذه المرّة، بل عنّا نحن الاثنان في بلدٍ آخر خلف هذا العالم، لا يعرفه أحد؛ لأن الناس يفسـدون كلّ شيء يعرفونه. سـأظلّ أتحدث معها طويلًا، لا يهـم لو اسـتغرق حديثنا أيامًا وأسـابيع بل وشـهوراً، المهم أن نظلّ نتحدث عن كل شيء.

أشعلت سيجارة وسحبت منها نفسًا عميقًا ثم مشيت مترنحًا باتجاه السدّ أرقب الجبال البعيدة التي تحتضن الوادي بأذرعها

الحانية وكأنه طفل وسط هندول. كان السدّ فارغا إلا من بعض الصلصال والأحجار المغطاة بالطين وكأن كل ذلك ينعي القتيلين. على جنبات السدّ صخور جرداء عارية إلا من حشائش جافّة متوزعة على أطرافه. الريح تحمل ذرات الغبار من المدرجات الزراعية وتضارب أغصان الشجر ببعضها. صوت رجل من أطراف القرية لفت انتباهي وهو عائدٌ بمعية ثوره، يصيح بكل ما أوتي من قوة أن يجهزوا الماء والعلف للثور، قد لا يهتم ذلك الرجل بجوعه هو أو بتعبه، المهم أن يصل الثور ويجد أمامه ما يريحه.

ظللت أتنقل في المكان حتى غارت الشمس خلف تلك التلال والجبال البعيدة، قليلًا تحوّل وهجها إلى لون يشبه لون الدماء، وأدلج الليل في مسيره بينما عدت إلى بيتي.

لم أستمتع بنومي في أول ليلة، فقد ظللت طيلة الليل أغوص في كوابيسٍ متشابكة، في أول الليل رأيت الحسناء على حافة سدّ الواديِ وهي تغتسل من فوق ملابسها السوداء، لقد كانت تحمل السطل فتملأه بالماء حتى نصفه ثم تصبّه من فوق رأسها، اقتربت منها فدعتني ـ بحركة من يدها ـ لمشاركتها الاغتسال لكنها اختفت. استيقظت بعد هذا الحلم عطشًا، شربت القليل من الماء ثم عدت للنوم وأنا أحاول قراءة بعض التعويذات رغم أني لا أؤمن بفاعلية ذلك.

لم يمر سـوى القليل حتى استبد بي كابوسٌ آخر؛ حيث رأيت شـرطياً يحـاول اللحـاق بـي ليضربني بهـراوةٍ ضخمـة كان يحملهـا ، لا أعرف لماذا يقوم بذلك، وأنـا أهرب أيضًا بكل مـا أوتيـت من قـوة وكأنـي ارتكبـت جرمًا كبيـرًا ، ظللت أهـرب حتى وصلت إلى مكانٍ هادئ ظننته خاليًا من الناس، فجـأة، رأيـت نادينـكا ، فانفرجـت سـريرتي، فكّـرت لو أناديها لكني تنازلت عن ذلك بعد أن رأيتها وقد شرعت بخلع ملابسـها قطعةً قطعةً حتى أصبحت عارية تمامًا؛ كنت أراها واقفـةً بأثدائهـا الزهرييـن، وأفخاذها البيضاويـن، وردفيها الممتلئين، فاشـتعلت في نفسي الشـهوة، فكرت بالاقتراب منها فرأيت رجلًا آخر بجانبها ، وكان عاريًا أيضًا ، لم يمض علـى وصـول ذاك الرجل سـوى ثوانٍ حتـى بـدآ يتحاضنان ثم مارسـا الجنـس واقفين. كنـت أرى نادينكا تقرص شـفتيها وهو يحاول إرضاءها بكل ما أوتي من قوة. كنت أشعر بخزي وأنـا أرى زوجتي تمارس الجنس مع رجلٍ آخر، كيف لها أن تفعـل ذلك؟ اقتربت منهما لأقتلهمـا معًا لكنهما لم يخافا من مقدمـي وظلّا يمارسـان الجنس، حاولت الإمسـاك بأحدهما لكن ، فجأة، كل شـيء غاب عني ووجدت نفسي أركض فـي مكانٍ آخـر لا أعرف ملامحه البتـة ، ظللت أركض في ذلك المكان المجهول لفترة لا بأس بها ، وفي لحظة شـعرت بنشـوة هائلة للقفـز والطيران في الجو ، قفـزت كمن يحاول

الإمساك بشيٍ بعيد عن متناول يده، وما فاجأني هو أن جسمي ارتفع عن الأرض وشرعت أطير بهيئتي البشرية نحو السماء، كنت أنظر نحوي والأرض تبعد أكثر فأكثر، وارتفعت نحو الأعلى حتى شعرت أني سأغيب في السماء، أو ربما غبت.

استيقظت فزعًا عندما سمعت طرقات على الباب الخارجي للبيت، كان حلقي جافاً فأخذت قارورة الماء التي كانت بجانبي، شربت منها قليلًا دون علمي أنها أصبحت بدرجة حرارة الغرفة التي كانت مرتفعة. قرقرت معدتي، وشعرت بأنها ستتسبب لها الكثير من المتاعب لو واصلت الشرب أكثر، فتركتها، وخرجت لأستكشف هوية الطارق بملابس نومي. فتحت الباب ناعسًا لأجد أمامي شابًا مراهقًا يبدو أنه في الثالثة عشرة، يرتدي طاقية ملونة وبنطالًا أزرقًا ويحمل في يده عصًا يبدو أنها من أجل الحيوانات التي يقودها للرعي. تلعثم في البداية ثم جمع كلماته وقال إن أباه يدعوني لحضورالاجتماع الذي سيقام اليوم من أجلي في بيت المحامي مروان، نظرًا لانشغال بيت الشيخ بأقاربه الذين أتوا لزيارته من منطقة أخرى.

سألته عن بيت المحامي فأشار إلى بيتٍ وسط القرية وقال:

ـ أترى تلك الطيرمانة المبنية بالياجور؟ ذلك هو بيت

المحامي.

هززت رأســي موافقًا للقرار الصائب الذي ساقه إليَّ القدر من خلال هذا الشـيخ الرائع، ثم أغلقت الباب وأنا أفكر في ما سيحدث ذلك اليوم.

الفصل الرابع عشر

ها هم أهل قريتي عرفوا أني خرجت من السـجن رغم أني لـم أرد أن يعرفوا بذلـك، يا ترى هل يعرفون بمدى جديتي في الانتقـام؟ لا أظـن ذلك، وهـذا ما جعلني أكثـر اطمئنانا. إنه لمؤلمٌ حقًا أن تخرج من هذه الحياة مظلومًا، ولكني لن أخرج منها مظلومًا مهما كان الأمر، وسأنتقم منهم جميعًا، ولكن بأي واحدٍ منهم سـأبدأ؟ هل سـأبدأ بنادينكا التي غرها ذلك المحامـي المخـادع، أم بالمحامي نفسـه أم بماهـر؟ لا فرق، ولو أن لي قدرة لجمعهم كلهم في آنٍ واحد لفعلت. فضّلت أن أستطلع الأوضاع أولًا ثم أدع القدر هو من يوجه ضربتي.

لقـد كنـت علـى علـم بـأن القريـة سـتعقد اجتماعًـا من أجلي وسـيدعونني لذلك الاجتماع، حتـى يتظاهروا بفرحتهم بخروجي من السـجن، وأنا لا بُدّ أن أتظاهر أيضًا بأني سـعيدٌ لرؤيتهم، وأني كنت لا أنام الليالي إلّا وأنا أفكر في حالهم. كانـت تقول لي أمي "إذا دخلت وأهل البلد عور أعورت عينك معهـم"، وهـا أنـا أتبع نصيحـة أمي لا أكثـر. عشـرين عامًا مكثتهـا في السـجن لم يأتِ أحـد لزيارتي، ماذا سـيعني لي اجتماعهـم وإظهـار فرحتهم بعد أن أصبحت حـرًا طليقا؟ هل

سـيعيدون لي سـنين عمري التي خسـرتها؟ هل سـيعيدون لي زوجتـي التـي أُخذت منـي؟ لا أظن ذلك، حتـى وإن أعادوا لي زوجتي، ماذا ينفعني وقد نامت مع رجلٍ آخر؟

مـن المعـروف في قريتـي أن الاجتماعات تبـدأ بعد الغداء مباشـرةً، حيـث أن الآبـاء في القريـة يعودون مـن مدرجاتهم الزراعيـة قبـل أولادهـم فيلبسـون أجمـل ما لديهـم ويأخذون حـزم القات ثـم يحضـرون الاجتماعـات التي تنتهـي بالحلول القبليـة. تجهـزّت لتلك الزيـارة، فحلقت ذقني ولبسـت أجمل مـا لـديَّ واقتنيت حزمة قـات من النوع الجيـد، وظللت أنتظر حتـى دقّت الثالثة عصرًا ثـم اتجهت نحو بيت المحامي. وقفت أتفقـد البيت من الخارج، بيت جميل مبني بأحجارٍ منقوشـة، وكان طابقين، محاطٌ بسورٍ ليس فيه أي منفذ سوى من تلك المنطقة الغربية التي بها البابُ الرئيسـي. بعد الباب الرئيسـي كان هناك سلمٌ يقود إلى الدور الثاني مباشرةً، ويبدو أنه عُمل خصيصًا للضيوف أمثالي؛ حتى لا تصادفني أمثال نادينكا.

وقـع بصري على طفل أبيـض الملامح يلعب حـول البيت، يبـدو أنه في العاشـرة، لقد كان يقذف شـجرة السـدر التي كانـت هنالك بحصـوات في محاولات فاشـلة منه لإسـقاط ثمـرة منها. ظـلّ يقذف بالحصـوات حتى وقعـت إحداها على قدم امرأة عجوز كانت تجلس فوق وسـادةٍ ملوّنة ترقّع بنطالاً

قديمًـا ، لقـد كانـت ترتـدي ثوبًـا أسـودًا بسـيطًا خاليًا من الزخرفة. رفعت بصرها نحوي، وكانت نظراتها فاحصة وما أردتها أن تعرفني فتفاتحني في الحديث، لذا شـحت ببصري عنهـا محاولًا إخفاء وجهي، فسـمعتها تصـرخ في وجه الطفل بغضـب: "لقـد أصبتني في قدمي يـا يهودي يا ابـن اليهودي، اذهـب بعيـدًا عني وإلا أدبتـك". ظللت أفكر فـي تلك الجملة التي قالتها العجوز، والتي سـمعتها في حياتي ألف مرةٍ ومرّة، قلـت في نفسـي "نحن نـرى أن كلمـة "يهودي" شـتيمة، وقد يتشـاجر شخصٌ إذا سـمع أحدهم يصفه بهذه الصفة، يا ترى هل اليهود يعدّون كلمة "مسـلم" شـتيمة أيضًا؟ ماذا لو سمعنا يهوديًا يقول ليهودي آخر بغضب "يا مسـلم يا ابن المسلم؟" هل سيتشـاجران ويقتتلان كمـا نفعل؟" لا أعرف فـي الحقيقة، لكن يؤرقني هذا السؤال.

ظللـت أتفقـد ذلـك البيت المزخـرف وكأنـه ليس كأي بيـتٍ آخـر بالنسـبة لـي. خرجت امـرأة مرتديـةً عباءة سـوداء وغطاء رأس أسود إلى جانب وشاح ذي لون أسود أيضًا تتخلله بقـع حمـراء. قـد أقول إني لـم أتعـرف على الكثيـر من أهل القريـة، لكن المـرأة التي أمامي لن أنسـاها ما حييت؛ وهل ينسـى الرجـل المرأة التـي نام معها وعرف كل سـنتيمتر في جسمها؟ لقد كانت نادينكا؛ لم تعد تلك الفتاة الغنجاء ذات

الملامح الجميلة، فالزمن قد سلب منها نظارتها كما يسلبها من الكثير في هذه القرية؛ جسمها قد ترهل، والتجعدات بدأت تظهر في وجهها الشاحب، ناهيك عن اللباس الأسود الذي كانت ترتديه بغير ذوقٍ ولا اهتمام. يا ترى هل لبست هذا اللباس طواعيةً أم هو من أجبرها على ذلك؛ حتى تصبح مثل بقية نساء القرية؟ أم غطاها حتى لا يرى البقية جمالها الأجنبي فتشتهيها أعينهم؟ يجمح خيالي بعيدًا، إلى غرفة النوم بل إلى السرير؛ يا ترى هل يمارس الجنس معها كثيرًا؟ هل يلاعبها في أوقات فراغها؟ هل هي سعيدة معه أكثر مما كانت معي؟ لا أظن هذه الأسئلة تؤرقني فقط، بل تؤرق كل رجل أُخذت منه زوجته سواء كان يحبها أم لا.

رفَعت نظرها نحوي فأخفيت وجهي خيفة أنها لمحتني؛ لا أريدها أن تراني الآن، صاحت تلك العجوز هنالك: "تعالي خذي ابنك يا أمل، فهو مزعجٌ جدًا، وحتى أنه أصاب كاحلي بحصاة، وهي الآن تؤلمني جدًا". اقتربت نادينكا وكأنها لبت النداء. أمسكَت بالطفل ثم قبّلته وأصلحت من هندامه ثم أمرته أن يذهب إلى جانب أبيه، فانطلق الطفل وغاب في البيت الواسع.

سؤالٌ علق في عقلي: "لم نادتها بـ أمل؟" وهل غيّرت اسمها أم أنها ليست هي؟ مستحيل أن تكون امرأةٌ أخرى

غيـر نادينكا. فكّرت قليلًا في الأمر فعرفت أن معنى اسـم نادينكا بالعربية هو "أمل"، ولكن لم يغير المرء اسمه؟ وهل الاسم سوى رمز يمكّن الآخرون من التعرف علينا وليس على ماهيتنـا، فقد يسـمي أحدهم كلبه باسـم من أسـمائنا نحن البشـر فيتعـود الكلـب على ذلك الاسـم ويسـتجيب لنداءات صاحبه عندما يسـمع ذلك الاسـم وهو لا يعرف في النهاية أنه كلب وليس إنسان، وهل تفرق؟

ماذا يعني أن يكون اسـمك سـعيد وأنت أتعس شخص في الحياة، ماذا تعني تسميتك لطفلك باسم ملك الدولة أو رئيس جمهورية أو باسم لاعبك المفضل وفنانك أو فنانتك المفضلة، هـل إعطاؤك له هذه الأسـماء تعني أنه حقًا فـي ذلك المقام؟ نحن فقط نكذب على أنفسنا بهذه التصرفات، والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يحاول الاستمتاع بكذبه على نفسه.

ظللت أتفقـد البيت من جوانبه فلحظت أن هناك نافذة في الدور الثاني من الجهة الشمالية، واتضح لي من خلال الستائر التـي عليهـا أنها غرفة نـوم. كان هناك غرفـة بجانب مدخل البيت من الطابق الأول، اتضح لي في ما بعد أنها غرفة حارس البيت.

خـرج المحامـي من البـاب المـؤدي إلى الصالـة الخارجية المكشـوفة في الـدور الثاني وصاح بي مرحبًـا، وطالبًا مني

الدخول. تمالكت نفسي وتصنّعت ابتسامة أمامه ثم شكرته على دعوته ودخلت. صافحني بيده الرطبة التي يبدو أنها لم تحمل في حياتها سوى القلم ورُزم النقود، أما وجهه فرغم حيويته إلا أنه كان متغضنًا. ظلّ يكرر جمل الترحيب حتى وصلنا غرفة الضيوف. لم يكن هناك أحد سوى الطفل الصغير الذي أمرته أمه قبل قليل أن يبقى إلى جانب أبيه، حيث أمره الأخير أن يذهب ليخبر أمه بأن الضيوف بدأوا يتوافدون، حتى تجهّز العصائر والشاي ربما. جلس المحامي أخيرًا متكئًا على ركبته اليمنى، صادرًا أنّات تشي بتقدم العمر. ابتسم ابتسامة ماكرة ثم قال:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا أدهم، كم أنا سعيدٌ كونك اليوم بيننا، وكنت أعرف بأن هذا اليوم سيأتي، فقد بذلت حينها كل ما أوتيت من ذكاء حتى لا تصدر المحكمة أمرًا بإعدامك، ونجحتُ في ذلك، وهذا كله بفضل الله ثم بفضل خبرتي القديمة في المحاماة.

ظلّ يسرد لي ما كان يفعله من أجل قضيتي، وكم من الرشوات والهدايا قدمها للموظفين وللحاكم ومستشاريه حتى أخرجني إلى تلك النتيجة، وأنا أستمع إليه على نارٍ هادئة، مرةً أنظر في عينيه الماكرتين وأخرى أتطلع إلى الأشياء من حولي كطنافس وثريّات متوسطة المكان بكبرياء، نقوش

جميلـة على جوانب المجلس رُسـمت بالجص الأبيض وكتب عليها أسـماء اللّٰه الحسنى بألوانٍ زاهية جميلة، جملة عريضة في رأس المجلس كُتبت بشـكلٍ أنيق "هذا من فضل ربي"، تحـف تبـدو ثمينـة، كنبات وثيـرة تم تشـكيلها علـى هيئة المـكان بشـكل أنيـق، صور قديمـة وشـهادات مؤطرة في براويز مذهبة مكتوبٌ اسم المحامي مروان في وسطها بزهو بالغ. شـعرت بالحقد تجاهه ولم أسـتطع كتمانه هذه المرة، فسألته مفاجأةً بجدية:

ـ وهل تعتبر يا حضرة المحامي أن سجن عشرين عامًا هو انتصـارٌ كبير؟ ماذا ينفعني الآن وأنا بلا مسـتقبل، بلا عائلة وحتى بلا زوجة؟

شعرت أن وجهه امتعض لكلماتي ورأيت أن هذا ليس وقت العتـاب فـ"لكل مقامٍ مقال ولـكل حدثٍ حديث"، تمالكت نفسـي، وحاولـت رسـم ابتسـامة على وجهـي لإظهـار معاني الدعابة، غمزته بعيني ثم قلت:

ـ لا علينـا مـن كل هذا، الأهم أني أصبحـت حرًا. والآن أخبرني، هل ما زالت تقاسمك الفراش؟

اسـتاء مـن سـؤالي هـذا أيضًـا، فحـاول التهـرب منـه، مسـتدعيًا ابنه أن يسـرع في إحضار بعـض العصائر. واصلت حديثي مداعبًا:

ـ لا تقل لي إنك لم تعد تنام معها، فالنساء الروسيات لا يطقن الرجال الـ ... .

التفت نحوي بغضب، وقاطعني قائلًا:

ـ لقد استدعينا الجميع اليوم يا أدهم لنفرح بخروجك من السجن لا لنقلّب الذكريات القديمة التي لا طائل منها، فلا تفسد علينا وعليك هذه الفرحة.

ـ ومن قال إني أريد إفساد الفرحة، بالعكس، جئت من أجلها، ثم أنا لا أقلّب الذكريات يا حضرة المحامي، أنا أحاول فقط العيش مع الحاضر لا أكثر.

زمجر للحظة ثم قال:

ـ وتعلّمت الحذلقة في السجن أيضًا، ما دمت تحاول العيش في الحاضر فلم لا تنسى الماضي ولو لساعات؟

ـ الماضي لا يُعدُّ بالنسبة لي سوى الحاضر.

ـ يبدو أنك لم تخرج من السجن بعد يا أدهم.

سكتنا بعد أن بدأ الناس يتوافدون علينا أفرادًا وجماعات حتى امتلأ المكان، معظمهم أتى لينعم بمقيلٍ هادئ بعيدًا عن إزعاج أولادهم وزوجاتهم لهم. ظلّ المحامي يرحب بالقادمين كلٌّ باسمه حتى وصل رجلٌ يرتدي ثوبًا ناصع البياض وعمّة رمادية مصنوعة من القطن عليها بعض النقشات المحاكة

باليد ، يرافقه شـابٌ قوي البنية يحمل بندقية كلاشـنكوف مزودة بخزانتي رصاص، قام المحامي واقفًا فسلّم على الرجل ذي العمّـة الرمادية وقال بصوتٍ سـمعه جميـع الحاضرين: "يا مرحبا بالشـيخ ماهر" ، وردد من في المجلس بتودد : "حيّا الله شيخنا". ظللت أتأمله للحظات وكأني أعرفه، أليس هذا هو ماهر الذي قتل أخي؟ ربما في ذلك الوقت لم تسنح لي الفرصة لرؤية وجهه سوى للحظات لكن صورته ما زالت مرسومة في مخيلتي وكأنها الآن. ولكن كيف أصبح شـيخًا وله مرافق ومبجّلون؟ ألم يكن مجرمًا ذات يوم أم أن الإجرام شرطًا لابد منه لنيل ذلك المنصب؟ إنه ليس خطأه هو ، بل خطأ المحامي الكلـب؛ إن المحامي هو غريمي الوحيد ، فهو من سـلب مني زوجتي، وهو الذي أودعني في السجن كل هذه السنوات حتى صنع المجرمون من أنفسـهم شـيوخًا. لا أنكر أني قد أنسـى قاتـل أخـي لكني لن أنسـى من سـلب مني زوجتي، أليسـت الزوجة هي العرض والشـرف والكرامة بالنسـبة للرجال في هذه البلاد؟ وأنا تراني أُخذ مني كل هذا.

أتطلع حولي؛ وجوهٌ منتفخة بـ"القات" ، جباه متعرّقة ، البعض يمضـغ القات بأناقة وتأنٍّ ومن فترة لأخرى يتبادل الحديث مع الجالسـين من حوله ، وأمـا البعض الآخـر فيمضغه بجلافة ، يملأ شـدقيه حتى تكاد تغور عينـاه في وجهه. الأرض ممتلئة

بأعـواد القـات وأوراقـه، والمبازق النحاسـية أمـام المحامي والشيخ، ومبازق من المعدن الأبيض أمام البقية.

ورغـم أن الجميـع جـاء اليـوم مـن أجلـي، إلا أنهـم ظلّـوا يرمقونني بنظرات الحقد والكراهية، كنت أرى في عيونهم أسـئلة كثيرة؛ لماذا هذا المجـرم هنا؟ أمن أجل هذا المجرم جُمعنـا؟ ماذا أضـاف للحياة بخروجه؟ لو أنه بقي في السـجن لكان أفضل. الشيخ المبجّل يمضغ القات بتأنٍّ، فرغم ضرورة حديثـه مـع مبجِّليـه إلا أنه ظـلّ صامتًا حتى منتصـف النهار، وفجأة جمع أشياءه وانتصب واقفًا، فاعتذر من الحاضرين أن لديه ضيوفاً، وغادر المجلس.

لم يمضِ على خروج الشـيخ ومرافقيه سـوى نصف سـاعة حتـى بـدأ البقية يغـادرون المجلـس أيضاً. سـألت عن مكان الحمّام رغم عدم احتياجي إليه، فدلّني عليه الطفل ذو السبع سنوات ثم عاد نحو المجلس بسرعة. ظللت أتفقد مداخل البيت ومخارجـه حتى حفظتها عن ظهـر قلب ثم عدت إلى المجلس. فـور عودتـي لـم يكـن فـي المجلس سـوى ثلاثة أشـخاص، مشـعثي الشـعر كقنفذ بري يمضغون القات بشراهة وكأنه آخر يوم سـيرون القات فيه، من فترة لأخرى يلتقطون المبزق البلاسـتيكي الممتلـئ ثلثيه بالبصـاق والمصنوع من أسـفل قنينـة ماء، وأخالهم بقوا للاسـتمتاع بمضـغ القات لا أكثر،

فأمثالهـم لا ينتظرهـم منتظـر ليغـادروا المـكان مبكريـن كالبقية. شـعرت بضرورة المغادرة، جمعت أشـيائي وسلّمت على حضرة المحامي ثم عدت أدراجي.

الفصل الخامس عشر

بـدأ الزمـن يسـتيقظ رويدًا رويـدا ، وها هـي اللحظة التي ظللت أنتظرها عشرين عامًا أتت، وها أنا أتجهز لأنقضّ على فريستي كالقدر، ما إن وصلت إلى بيتي حتى اتجهت مباشرةً نحو الصندوق الذي وضعت فيه المسـدس قبل أن يتم القبض علـيّ. يا للروعة! مـا يزال كما وضعته. أخذتـه فنظفته حيث كان مغبرًا جدًا ، وظللت أنتظر دخول الليل. لا بُدّ أن أباغتهم قبل أن يجدوا وقتًا للتفكير.

النهار بدأ يجر أذياله للانصراف والليل شـرع في الحضور. تجهّـزت للبـدء في تنفيـذ عمليتي المقدّسـة ، فأخذت معطفًا يقيني شـرّ البرد واصطحبت مصباحًا يدويًا يقيني شـرّ ظلام الليـل، فالليل كمـا يقول أهل قريتي لا يأمنـه أحد ، وأنا في الحقيقة لم أعد آمن حتى عينيّ. نعم، حتى عينيّ، أليسا يريان فـي النهـار كل شـيء بوضوح وفـي الليل لا يريان شـيئا؟ لم؟ هـل الظلام هـو من يحجب عنهمـا رؤية الأشـياء أم أن الضوء هـو الذي يمكّنهمـا من رؤيتهما ، أم يا تـرى أن عينيّ هي من توهمني في أنها ترى كل ذلك؟ لا أعرف في الحقيقة ولهذا لا آمن الأشياء من حولي، والإنسان بطبيعته يخاف مما لا يعرفه.

قبل أن أغادر البيت ذهبت إلى غرفة أختي لأتفقدها ، أو قل لأودعها إن صح القول. يا لها من مسكينة ، حُرِمت من التعليم وهي صغيرة ثم حُرمت من متعة الزواج بعد ذلك طيلة عمرها ، والسبب أن سمعتها تلطّخت بعد أن انتشر الخبر أني اغتصبت حسناء الوادي، وفي قريتي أن يرتكب أحدهم جرمًا يعني أن جميع أفراد الأسرة ارتكبوا نفس الجرم مواكبة للحكمة التي تقول "الحسنة تخصّ والسيئة تعم" لذا بما إني حاولت اغتصاب الحسناء فأختي حاولت القيام بعمل مشين أيضاً ، وإن لم تكن قد حاولت، فالعرق دسّاس كما يُقال.

أختي طيلة عمرها لم تؤذ أحداً ولم تتكلم عن أحد بسوء ، ولكن هذا هو قدرها ، وقاموس قريتي يقول إنه لا أحد يستطيع الاعتراض على قدره. أخبرتها أني سأخرج للتمشي قليلًا فلم ترفض، طلبت منها أن لا تنتظرني إذا تأخرت فهزّت رأسها موافقةً وكأنها تقول لي: "وهل انتظرتك يوما؟".

عندما خرجت من البيت كان هناك صمتٌ أخرقٌ مخيّمٌ على المكان، وضبابٌ خفيف يحوم في الجو ، النجوم ساهرةٌ كأم لولدٍ محموم، ونسائم الليل الواهنة تهدهد أغصان الشجر فتتراقص بهدوء. صرصور الليل يصدح بأغنية لا عنوان لها بأعلى صوته ، وخفافيش تتنقل من مكانٍ لآخر لا يُسمع منها سوى ضربات أجنحتها على الورق وهي تختبئ بين

الشـجر الكثيـف وكأنها ترتب لعملية مـا. من طرف الوادي وصلنـي صوت ذئبٍ يعوي بحزن عميق وكأنه يشـعر بالوحدة والخوف، أو أنه فقَد عزيزًا كما يفقد الكثير، من يدري!

اقتربـت قليلًا من بيت المحامي أخطط للعملية عن قرب، كانـت هناك مشـكلة قـد تواجهني وهـي الخروج؛ مـاذا لو افتضـح أمـري وأنا فـي الداخل، ماذا سـأفعل حينهـا؟ ظللت أفكّـر فـي هـذا الأمر حتـى رأيت أنـه لا مخرج سـوى القفز مـن البلكونة الملتصقـة بالصالة الخارجية المكشـوفة في الـدور الثاني حتـى الأرض، فالارتفاع لن يصل إلى ثلاثة أمتار فحسب، وجسمي النحيل لن يعيق.

ها هي اللحظة الحاسمة أتت، تسلّقت السور الخارجي من الجهة المعاكسة لتلك التي يتواجد فيها الحارس حتى دخلت إلى الحوش الداخلي للبيت، لقد كانت نافذة غرفة المجلس مفتوحـة، فرأيـت أن أدخل أولًا إلى غرفـة الجلوس ثم أقتنص الفرصة المناسـبة للعبور إلى غرفة الحبيبين. بدأت أتسلق في البيت الحجري وذلك من خلال المسـافات التي ما بين أحجار البنايـة حتـى تمكّنت من اسـتطلاع من في المجلـس، وبعد أن تأكـدتُ من خلـو المكان جمعت قواي ودفعت بجسـمي نحو الأعلى حتى أمسـكت بحافة النافذة من الداخل، وبقوة سـاعداي تمكّـن بقية جسـمي من النفـاذ إلى داخـل الغرفة.

كان المجلس مليئاً بالمساند والكنب والأكواب، وهذا كان يجعلني أتعثر في بادئ الأمر، حتى أني تعثرت بكأسٍ كان بداخل صحن، فما إن انقلب الكأس على الصحن حتى أصدر صوتًا امتلأ به المكان، ظننت أن أمري حتمًا قد انكشف، ولكن لم يسمع أحد، فبدأت أمشي بحذر، وتكيُّف عيني على الظلام ساعدني على النجاح في ذلك، فبدأت أشعر بتواجد الأشياء التي من الممكن أن تكشف أمري، كصحنٍ مطروح على الأرض، أو كوب زجاجي موضوع فوق مسندٍ وهكذا.

اقتربت من باب المجلس، وكنت خائفًا لو يُصدر صريرًا، فتحته بتمهل ولم يصدر أي صوت، ويبدو أنه مصنوع من خشب الأبنوس، وعُمِل بإتقان وإلا لسمع صريره حتى الخارج مثل بقية أبواب بيوت القرية. نفذت إلى الصالة التي تربط بين كلٍّ من المجلس والحمام وغرفة النوم، بعد خروجي من باب المجلس كان الحمام على يميني وغرفة النوم على يساري، اتجهت يسارًا حتى وصلت إلى باب غرفة نومهم. نظرت نحو ساعتي وكان قد بقي عشر دقائق حتى تصل الساعة الواحدة بعد المنتصف، هممت بفتح الباب لكني ترددت بعد أن سمعت صوت صرير باب يبدو أنه انفتح، تجمّدت لدقيقة خائفًا ما لو أن أحدهم قادم، ولكن لم يأتِ أحد. اطمأننت لذلك، وفي

الحقيقة لم يكن هناك من أحد غيري، فذلك الصرير يبدو أنه كان صوت الريح لا أكثر. لقد كان باب الغرفة شبه مغلق، لكنه لم يكن مغلقًا تمامًا، مددت يدي برفق نحو الباب، دفعته قليلًا، فانفتح، أمسكت بالمسدس الذي أحضرته معي في يدي اليمنى، وظللت أفتح الباب باليسرى حتى سُمح لي برؤية السرير وعليه المحامي وهو نائم كالخنزير، وبجانبه امرأة كانت نائمة على جنبها ومولية رأسها نحو الجدار فلم تتسنَّ لي رؤية وجهها لأتأكد ما إن تكن نادينكا أم زوجته الأخرى. اقتربت من السرير بخطواتٍ وئيدة وقبل أن أصل إلى جانب السرير ارتطمت قدمي بمنضدةٍ صغيرة وُضع عليها إبريق كان مليئًا بالماء، انقلب الإبريق على المنضدة مما أحدث صوتًا استيقظ معه المحامي، فتح عينيه سائلًا عن هويتي، رفعت المسدس ووجّهته نحوه بثقة تامة، ثم قلت:

ـ أنا أدهم، أم قد نسيتني أيها المجرم لخفيّ؟

اعتدل قليلًا في جلسته ولمس بيده كتف زوجته وكأنه يستنجد بها، حتى استيقظت. تحسست الجدار بيدي اليسرى بينما يدي اليمنى ممسكة بالمسدس ومصوبة نحويهما، وجدت مفتاح الكهرباء فكبسته وامتلأت الغرفة بضوء أعمى بصري لبضع ثوان، حاولت التأقلم مع الضوء بأسرع وقتٍ ممكن حتى لا أُغدر. المحامي يفرك عينيه وهو يحاول

الرؤية بوضوح. وفي سبيل تفهّم الأمر اعتدل في جلسته أكثر وحاول مد يده نحو المنضدة فصحت فيه أن لا يتحرك. أعاد يده إلى حضنه وهو يقول بصوتٍ خافت:

ـ النظّارة ..

لم يتح لي الموقف النظر في المكان أكثر، ولم ألحظ سوى خزانة من الحديد الصلب كانت في طرف الغرفة من الجهة اليمنى، وبجانبها دفتر صغير وقلمان. ها هي قد تيقّظت من نومها، نعم، لقد كانت نادينكا كما توقعت، وكانت تلبس ثوب نوم أحمر، مفتوح من صدرها وقصيرٌ لا يغطي سوى القليل من وركيها. تذكّرت أيامنا في روسيا وأنا أراها نائمة أمامي بجانب رجل فاشتطت غضبًا. عندما رأتني شاهرًا المسدس نحويهما صرخت بأعلى صوتها وكأنها تستنجد، حاولت إسكاتها بالتهديد لكنها ظلّت تصرخ. شعرت لوهلة أنها أغاظتني وأشعلت فيّ جذوة الغضب لتصرفها ذلك، ولم أكن أفكر في أذيتها إطلاقًا، لكن كما يُقال "جنت على نفسها براقش". لعنتها بصوتٍ منخفض وأنا أدعو في نفسي أن تهدأ. حاولت أن أهدئ من غضبي قليلًا حتى لا أرتكب أية حماقة، لكن صوت نادينكا وحركاتها الجنونية أفقدتني أعصابي، وخفت لو أن أحدهم قد سمع صراخها وهو في الطريق إلينا، لذا رفعت المسدس وصوبته نحو قدميها بغية

إرهابها لتسـكت لكنها لم تسكت، وللحظة، سحبت الزناد فانطلقت رصاصة امتلأ مع خروجها المكان بضجيج لا يُحتمل. نظـرت نحـو نادينـكا، اللعنة! لقد طوقـت بيديها فوق رأسـها وأحنته نحو رجليها وكأنها كانت تحتمي بيديها، لكن يبدوا أنها لاقت حتفها حيث أن الرصاصة أصابت ناصية رأسها تمامًا.

كان المحامـي مذهـولًا لما حـدث أمامـه، ورأيته يحاول أن يتحـرك لكـن دون فائدة، وكأن جسـمه قد اشـتلّ أو أن قلبه قد توقف، كان يفتح فمه يحاول الصراخ لكن لا صوت يصلني، ولا أرى أمامي سوى عينان زائغتان أذهلتهما ما حدث أماميهما.

خرجـت من غرفة النوم تلك مخلّفـاً نادينكا مقتولة كما يبدو، لكني لسـت المذنب؛ فأنا لم أرد قتلها، فهي من قتلت نفسـها بانحناءتها السـخيفة تلك، وكل ما أردته هو تخويفها لا أكثر.

وأنـا أحاول عبـور الصالـة المؤدية نحـو البلكونة كانت أفـكاري متشـظية، كيف الخلاص، إلى أيـن أذهب، ماذا سأعمل الآن؟

الليل البهيم يطبـق على المكان، أصوات أقدام يبدو أنها تتجـه نحـوي، فصـوت الرصاصة حتمًـا قد أيقـظ الحارس، ويبدوا أنه ينتظرني في الخارج.

الفصل السادس عشر

ظـلامٌ دامسٌ يغطّي المكان جعلنـي أفقد بوصلتي، بينما كنـت أبحث عن المخرج متخبطًا بين جـدران الباب المؤدي نحـو البلكونة تذكّـرت أمي، ثم تذكّـرت أخي وتذكرت الحسـناء وكأن تذكّرهم ذلك قد فُرض عليَّ. أسـرعت نحو المخـرج بعد أن رأيت نورًا ضئيلًا يخترق الباب غير المحكم إغلاقـه، وانبعثـت فـي نفسـي بارقـة أمـل بالخـروج والنجاة مـن هـذا المأزق. اندفعـت نحوه بسـرعة محـاولًا تفادي كل المسـافات كأنني أسـابق الزمن، ولكن كمـا يُقال «تأتي الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن»، فقدمـي اليمني علقـت بدلوٍ مملـوء بالماء كان موضوعًا قرب بـاب البلكونة الحديدي، ولا أعـرف لِمَ وضع هناك. سـقطتُ أرضًـا حتى ارتطم كتفي الأيمـن بباب البلكونة مما أحدث ضجّة كبيرة، وانسـكب الماء علـى الأرض وابتلّت قدماي بما فيهما حذائي المطاطي. تحسسـت المسـدس وأحكمت قبضتي عليه وأنـا أتلفت هنا وهنـاك خوفًـا من أن يكـون أحدهم يتبعنـي، وكان الظلام حالكًا فلم أرَ أحد. قلت في نفسـي: «لو أن الحسـناء ما زالت حيـة لحلفت أيمانًـا مغلّظة أنها هي التي أحضـرت الماء الذي

بداخل هذا الدلو». أحاول رؤية الأشياء من حولي لكن عينيَّ تخوناننـي كعادتهما؛ وأنا لا أطيق الظلام فهو يشعرني بأني أواجه عدوًا مجهولاً، والمجهول دومًا يبعث على الرهبة.

وقفت على قدمي ثم فتحت باب البلكونة بسرعة غير آبهٍ للضجّة التي كان يصدرها، ومن ثم خرجت إلى البلكونة ألتقط أنفاسي، وظللت مختبئًا خلف السياج الحديدي ـ الذي يحوي البلكونة من الخارج ـ بضع ثوانٍ أتفقد المكان في الخارج.

كانت هناك أصواتٌ تصلني من طرف القرية: "ما الذي حدث؟، من أين مصدر صوت الرصاصة؟، يا شيخ ماهر؟". إذا انتظرت أكثر فالوقت لن ينتظرني؛ لذا لا بد أن أقفز قبل أن يصل أحد. رفعت رأسي قليلاً، نظرت في الأرجاء فاتضح لي أنه لم يأتِ أحد بعد، وأصلحت من حذائي المطاطي الذي كان ينزلق إلى مؤخرة قدمي كلما حاولت المشي عليه، ثم نظرت نحو المكان الذي سأقفز إليه وأنا أقول في نفسي: "سأحاول أن لا أسقط أرضًا؛ حتى أهرب مباشرةً". أسندت يدي على الحديد المطوق للبلكونة وقفزت نحو الأسفل. وأنا في الهواء شعرت وكأن قلبي كاد أن يتوقف؛ لقد كانت المسافة أكبر مما كنت أتوقع أو هكذا خُيّل إليّ. يبدو أن فكرة محاولة عدم السقوط كانت سيئة جدًا؛ فبينما كنت

أشـدّ علـى قدمـيَّ لتتحملا الوقوف كسـرت كاحـل قدمي اليسـرى، ولو أني كنت سـقطت لبضع ثوان ثم نهظت لكان خيرًا من الوقوف أمام قوى الطبيعة الجبّارة ثم أسـقط لأصبح فريسة للقادمين.

حاولـت الوقـوف لكن قدمـي كانت تؤلمني جـدًا ، فقد كنت أشـعر أنها ستنفصل عن جسمي في أي لحظة. سقطتُ أرضًـا أتوجـع مـن الألم، كـررت المحاولات أكثـر من مرة لكن قدمي اليسرى خانتني، والخسائر الكبيرة في الغالب يكون سـببها هي الخيانة. وقفتُ أخيرًا وبدأت أمشي متقفزًا أعتمـد علـى قدمـي اليمنـى وكأني أتقفـز بين سـاحة مليئة بالألغـام. لـم أمشِ سـوى بضـع خطـوات حتى وصلنـي صوتٌ متجهمٌ يصيح من مكانٍ مجهول:

ـ قف مكانك وإلا أطلقت النار عليك.

كنت أحاول معرفة مصدر الصوت لكن أذنيَّ هما الآخران لم يسـعفا بوصلة جسـمي لتحديد المصدر، وأمـا عيناي فلا يريان سـوى أشـكال رمادية أو سـواد متكوم. اقترب الرجل منـي أكثـر، تحسسـت المسـدس فلم أجـده، اللعنـة! يبدو أنـه سـقط مني عندما قفـزت دون أن أنتبه. صـدق من قال إن المصائـب لا تأتـي فرادى، وأنا أقولهـا الآن، المصائب جنود القـدر، والقدر جنديٌّ مجهـول، لا يمكن لأحد التعرّف عليه

إلا إذا واجهه، وهل هناك من بمقدوره مواجهة قدره؟

عـادت بي ذاكرتـي إلى اليوم الـذي قُبض فيـه عليّ؛ لقد كانـت الأعين تلفحني بنظـراتٍ مليئة بالكـره والحقد رغم أنهـا لم تشـهد أنيِ ارتكبت أيـةً جريمة، ويكفـي الناس أن يسـمعوا عنك شـيئًا يسـيء إلـى سـمعتك لتصبح فـي أعينهم مجرمًا تستحق الموت ولعنة الله والناس أجمعين. جمعت قواي وأنا أقول في نفسـي: "المغامرات الكبيرة يخوضها العظماء" لذا تجلّدت وصحت في وجه القادم المجهول:

ـ لن أخرج من هذه الحياة مظلومًا.

أضاء المصباح اليدوي بضوئه السـاطع ووجّهه نحو وجهي فشـعرت أن سـيل الضوء قد أعماني وسـمعت خطـوات وئيدة تتقدم نحوي، عرفت حينها أن المواجهة وسـط موقفٍ كهذا خيـر قـرارٍ يمكـن للمـرء أن يتخذه؛ مثلـه مثل موقـفِ مولودٍ جديد ما إنْ يخرج من ذلك النفق الصغير إلى هذه الحياة حتى يتحتّم عليه عيشـها كيـف ما كانت؛ لأنه ليس أمامه سـوى خيـارٌ واحـد لا ثاني له، ثـم وإلى متى يمكن للمـرء أن يؤجل المواجهة؟ لسـتُ خائفًا من الموت؛ فالجميع في النهاية ميّت، هه، ثم ماذا غير الموت يوجد في هذه الحياة العبثية!

بـدأت أصـوات الأهالـي تصلنـي متموجة، أحـاول النظر حولي باحثًا عن مخرج، لكن كل شيء حولي كان رماديًا،

وتلـك الرمادية كانـت تؤرقني جدا؛ ماذا خلفها؟ هل هي حقًا رماديـة أم هي مزيجٌ مـن ألوانٍ اختلقتها تيّـارات عقلي الباطن توهمني كي لا أهرب!

إنـي أراهـا رماديـة ولا أنكر أنـي أراها أحيانًا أسـود من ريـش الغـراب، والأمر طبيعي جدًا مـا دام الوقت ليلًا، لكن هل يراها البقية مثلي، أم أنهم يتصورونها بشـكل آخر كما تصوروا جريمتي مع الحسناء؟

فكّـرت حقًـا فـي أن أوقـف الشـخص المجهـول الـذي يواجهني وأسأله: "هل يرى كل شيء حوله رماديًا؟" لن أسأله ولـم يكن فـي الحقيقة رأيـه يهمني، فأنا أعرف أنه سـيقول بأنه يرى نهارًا مُبلجا، والدليل أنه يرى كل شيء أمامه جليًا. انتهيت أخيرًا إلى أني لن أستطيع إقناع أحدهم بأن الوقت ليلًا ما دام يرى الأشياء أمامه بوضوح.

لا مفـر من المواجهة، لذا أدخلـت يدي في جيب معطفي، فلمسـت الخنجـر الذي أحضرته معي، لقد كدت أن أنسـاه. أخرجته من جيبي وقبضت عليه استعدادًا للمواجهة.

مـا دام أنـي سـأواجه فلـم لا أبـدأ بهـا أنـا؟ ضغطـت على قدمـيّ بكل ما أوتيت من قوة متجاهـلًا كل الآلام وانطلقت نحـو الرجـل المجهـول شـاهرًا خنجـري للمواجهة غيـر مبالٍ بالنتائـج. اقتربت أكثر وكدت أطعن الرجل المجهول لكن

صـوت رصاصةً مدويـة أصمّت أذنيّ وشـعرت معها بوخزة في فخـذي مـع لهيبٍ كلهيب "فلفل حيمي حـار" حين يوضع على جـرحٍ طري، حاولـت التقدم أكثر لكني غبـت عن الوعي، وجسـمي فجأةً تهاوى على الأرض، وتغير اللون الرمادي الذي كنت أراه قبل قليل إلى لون السـواد، ولم أدرِ بنفسـي بعدها إلا وأنا في مكانٍ آخر لم أتبين ملامحه البتّة.

سيرة ذاتية

عبد الرحمن الآنسي

مؤلف روائي يمني مواليد ١٢ تموز ١٩٩٣ في قرية خيمات، مديريـة المحويـت، محافظـة المحويـت. حصل على شـهادة الثانويـة من مدرسـة النور بيـت التركـي والبكالوريوس من جامعة سلجوق التركية.

بدأ مشواره في الكتابة مع نهاية الثانوية العامة وذلك عام ٢٠١٢م، وبدأ النشر لدى الصحف والمجلات العربية منذ عام ٢٠١٧.

شـارك فـي العديـد مـن النـدوات الأدبيـة والثقافيـة التي قامـت بها اتحادات الطـلاب اليمنيين والعرب في تركيا. نال جائزتين في المسـابقات الشـعرية التي نظمها اتحاد الطلاب اليمنيـن فـي كونيـا ما بيـن عامـي ٢٠١٦ ـ ٢٠١٩. له رواية بعنـوان دمـوع مقدسـة؛ وهـي تعتبر أولـى رواياته المنشـورة، كذلك له مجموعة قصصية تم نشرها الكترونيا.

جدول المحتويات

هذا الكتاب 3
الفصل الأول..... 5
الفصل الثاني..... 15
الفصل الثالث..... 31
الفصل الرابع..... 41
الفصل الخامس..... 49
الفصل السادس..... 51
الفصل السابع..... 69
الفصل الثامن 75
الفصل التاسع..... 81

الفصل العاشر.....87
الفصل الحادي عشر.....97
الفصل الثاني عشر 101
الفصل الثالث عشر 105
الفصل الرابع عشر.....117
الفصل الخامس عشر 129
الفصل السادس عشر 137
سيرة ذاتية 143

شكراً لأنك قرأت «نادينكا»

إن لامست هذه الرواية شيئاً فيك،
فيسعدني أن أسمع رأيك.

صدر للكاتب

دموع مقدسة

رواية

أفكارنا تغيّر حياتنا

2026

---

alanesi.com

@alanesi94